الفصل الثالث

مع المصطفى ﷺ في حجه

لن يستطيع الحاج أن يصل إلى بر حجه ، أو ينال الحج المبرور ؛ ما لم يجعل رسول الله ﷺ هادياً يهديه ، وقدوة يقتدي بها ، وأسوة يترسم خطواته . ولقد أحسن الفضيل رحمه الله لما قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل ، لم يقبل حتى يكون خالصاً وصواباً ، والخالص إذا كان لله عز وجل ، والصواب إذا كان على السنة .

وقد أردت أن أطوف بك أخي الحاج مع النبي ﷺ في حجته ، وأسعى بك مع النبي ﷺ في نسكه ، وقد أرمل بك أحياناً في أداء شعيرته ، وأهرول تارة أخرى عند نحره ، وأدفع بك عند حلقه ، لنرى أخلاق النبي ﷺ وهديه وسلوكه في تلك الحجة المباركة.

لنغترف من هديه عسى الله أن يمن علينا بموافقة هدي حبيبه ﷺ فيتقبل منا .

١ - المصطفى ﷺ ذاكراً لربه :

لم يكن النبي ﷺ غافلاً عن ذكر الله لحظة من اللحظات أبداً ؛ بل هو في ذكر متواصل ؛ في سفره وحضره ، في حله وترحاله ، في غدوه ورواحه ، في صحته ومرضه ، حتى في غفوته ونومه . وقد جاء في الحديث « تنام عينه و لا ينام قلبه »(١) .

---

(١) رواه البخاري في الوضوء(١٣٨) ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٣) عن ابن عباس.

وحج النبي ﷺ لا يعدو أن يكون من بدايته إلى منتهاه ذكراً متواصلاً لله عز وجل؛ ورُوي عن الحبيب ﷺ : « إنما جعل الطواف بالبيت، وبين الصفا والمروة ، ورمي الجمار لإقامة ذكر الله »(١).

وقال ﷺ : « أيام التشريق أيام أكل وشرب **وذكر لله** »(٢).

وعبادة النبي ﷺ ما كانت إلا لذكر الله تعالى ؛ وفي الحديث : « إنما فرضت الصلاة ، وأمر بالحج و الطواف ، وأشعرت المناسك **لإقامة ذكر الله** »(٣).

وقد كان النبي ﷺ في ذكره لربه ممتثلاً لأوامر ربه في قوله : ﴿ **لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ** ﴾ [الحج: ٢٨]

وقوله : ﴿ **فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً** ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

وقوله : ﴿ **وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ** ﴾ [البقرة: ٢٠٣]

وأنت أخي الحبيب : ألا يكون لك في حبيبك قدوة فتكثر من الذكر ؟

نعم أكثر في غدوك ورواحك ، في قيامك وقعودك ، أكثر من

---

(١) رواه أحمد (٢٤٣٥١) عن عائشة، وقال محققوه: إسناده ضعيف، وقد روي مرفوعا وموقوفا. رواه الترمذي وأبو داود . وذكره الألباني في ضعيف أبي داود ٢٠٥٦ .

(٢) رواه مسلم في الصيام (١١٤١) عن نبيشة الهذلي.

(٣) قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء : أخرجه أبو داود والترمذي من حديث عائشة نحوه دون ذكر "الصلاة" ، قال الترمذي: حسن صحيح.

ذكر الله ؛ فإن رجع الناس بما رجعوا ، رجعت أنت بذكر مولاك ، وتذكر قوله سبحانه : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٥٢]، وقوله في الحديث القدسي : « فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي »(١) .

ولله در القائل :

قلوب الناس في عرفات ... تناجي الرب بالنبضات
وبالأشواق تسلبها ... وتمزجها مع العبرات
تلبيه وتسأله ... بألوان من اللهجات
فيسمع صوتها حتى ... قبيل النطق بالدعوات

٢ - المصطفى ﷺ دعّاءً خاشعاً متضرعاً :

لم يكن النبي ﷺ مجرد ذاكر لله فحسب لكنه كان في ذكره لربه داعٍ بل دعّاء ، وهو في دعائه خاشع ، ومع خشوعه متضرع ، ورُوي عنه ﷺ : « الصلاة مثنى مثنى أن تشهد في كل ركعتين وأن تباءس وتمسكن وتقنع بيديك وتقول اللهم اللهم فمن لم يفعل ذلك فهي خداج » (٢)، (٣) .

---

(١) متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان (١٧١٣) .البخاري في التوحيد رقم (٧٤٠٥) ، ومسلم في الدعاء رقم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة.

(٢) خداج : ناقصة .

(٣) أحمد في المسند (١٧٩٩) عن الفضل بن عباس وقال محققوه: إسناده ضعيف، ورواه الترمذي (٣٨٥) والنسائي في الكبرى(٦١٥) ، وذكره الألباني في ضعيف ابن ماجه رقم (٢٧٧) .

وقد ظهر خشوع النبي ﷺ وتضرعه ومسكنته لربه في حجه جلياً، وقد وصف جابر رضي الله عنه إفاضة النبي ﷺ فقال : « أفاض رسول الله ﷺ وعليه السكينة »(١)؛ ولما سئل ﷺ عن الحاج قال : « الشعث التفل »(٢)،(٣).

ولما دفع النبي ﷺ من عرفة سمع أصواتاً وجلبة للناس وللإبل ، أشار النبي ﷺ إلى الناس بسوطه ثم قال : « أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس بالإيضاع »(٤)،(٥).

وعند طوافه ﷺ لم يكن سُريع الخطى رافع الصوت ، إنما كما يقول جابر : « بدأ بالحجر فاستلمه وفاضت عيناه بالبكاء »(٦).

ولهذا فقد كان ﷺ يرغب أصحابه في التضرع والدعاء عشية عرفة فقد جاء في الحديث أنه ﷺ كان يقول لهم : « ما من يوم أكثر أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة ، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول : ما أراد هؤلاء ؟ »(٧).

---

(١) رواه أبو داود في الحج (١٩٤٤) عن جابر . وذكره الألباني في صحيح أبي داود رقم (١٦٨٩) .

(٢) الشَّعث : أن يَغْبَرَّ الشعرُ ويَنْتَتِفَ لبُعد عَهْدِه بالتعهد من المَشْط والدهن . التَّفَل : ترك الطِّيب . رجل تَفِلٌ أي غير مُتَطَيِّب بَيِّن التَّفَل ، فيوجد منه رائحة كريهة .

(٣) رواه ابن ماجه في الحج (٢٨٩٦) عن ابن عمر ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣ / ٤٣٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٥ / ٥٨) . وذكره الألباني في صحيح الجامع (٣١٦٧) .

(٤) الإيضاع : السير السريع .

(٥) سبق تخريجه.

(٦) رواه الحاكم (١ / ٦٢٥) عن ابن عباس، وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٥ / ٧٤) . وذكره الألباني في ضعيف الترغيب رقم (٧٣١) .

(٧) رواه مسلم في الحج رقم (١٣٤٨) عن عائشة .

وعن ابن عباس قال : كان فيما دعا به رسول الله ﷺ في حجة الوداع : «اللهم إنك تسمع كلامي، وتعلم مكانى، وتعلم سري وعلانيتي ، لا يخفى عليك شيء من أمري ، أنا البائس الفقير المستغيث المستجير المشفق المقر المعترف بذنبه ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عيناه ، وذل لك جسده ، ورغم لك أنفه ، اللهم لا تجعلني بدعائك شقيا ، وكن بي رؤفا رحيما ، يا خير المسئولين ، ويا خير المعطين »(١) .

ولأجل الدعاء فقد كان من سنته ﷺ أن يجمع الظهر مع العصر تقديماً وقصراً بعرفة ؛ ليتفرغ ﷺ لدعاء ربه ومولاه ، وهذا أسامة بن زيد يروي لنا حال النبي ﷺ يوم عرفة فيقول : «كنت ردف النبي ﷺ بعرفات فرفع يديه يدعو ؛ فمالت به ناقته فسقط خطامه ، فتناول الخطام بإحدى يديه وهو رافع يده الأخرى»(٢) .

هذا وقد عهد للنبي ﷺ وقفات يقف فيها داعياً ربه ظاهراً خشوعه وتضرعه وذله وافتقاره ، ومسكنته وحاجته ومن هذه الوقفات :

---

(١) والطبراني في الصغير (٢ / ١٥) وفي الكبير عن ابن عباس . وقال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني في الكبير والصغير وزاد الوجل المشفق وفيه يحيى بن صالح الابلي، قال : إنه روى عنه يحيى بن بكير مناكير وبقية رجاله رجال الصحيح (٣ / ٢٥٢) ، وذكره الألباني في ضعيف الجامع رقم (١١٨٦) .

(٢) رواه أحمد (٢١٨٢١) عن أسامة بن زيد، وقال محققوه : حديث صحيح ، ورواه النسائي (٥ / ٢٥٤) وابن خزيمة (٢٨٢٤) . وذكره الألباني في صحيح النسائي رقم (٢٨١٧) .

الوقفة الأولى : عند الصفا : وكان من دعائه ﷺ عندها : يتلو قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة: ١٥٨].

ثم يقول الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحي ويميت وهو على كل شيء قدير. لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، يكرر ذلك ثلاثاً ، ويدعو بين ذلك ويرفع يديه متوجهاً إلى البيت(١) .

الوقفة الثانية : عند المروة : ويدعو بما دعا به عند الصفا .

الوقفة الثالثة : يوم عرفة : فقد وقف النبي ﷺ على ناقته من زوال الشمس حتى غروبها .

الوقفة الرابعة : عند المشعر الحرام : وقد أطال النبي ﷺ وقوفه وتضرعه من صلاة الفجر حتى أسفر جداً قبل طلوع الشمس .

الوقفة الخامسة : بعد الجمرة الأولى في أيام التشريق : وكان وقوفه ﷺ بمقدار سورة البقرة .

الوقفة السادسة : بعد الجمرة الثانية في أيام التشريق : وكان وقوفه ﷺ بمقدار سورة البقرة .

فاحرص **أخي الحبيب** على الاقتداء بحبيبك وأكثر من التضرع ، وأظهر التمسكن والمسكنة، تصل إلى مرادك بإذن الله .

---

(١) رواه مسلم في الحج رقم (١٢١٨) عن جابر.

٣ - المصطفى ﷺ ناصحاً لأهله :

لم ير التاريخ كله رجلاً ناصحاً لأهله كمحمد بن عبدالله ﷺ؛ ولم لا ؟ وهو القائل ﷺ : « خيركم خيركم لأهله »(١) .

ومما نزل عليه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ** ﴾ [التحريم: ٦] وهو القائل : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته »(٢) .

ولعل مكة لم تشهد على مر التاريخ حاجاً خرج بأهله كرسول الله ﷺ ؛ ذلك أنه خرج في حجة الوداع بكل نسائه ، كما خرجت فاطمة و لحق به زوجها علي رضي الله عنه ، ومع كثرة العدد لم يدخر النبي ﷺ نصحاً في أهله، ولم يشغله أهله عن أمته، ولا أمته عن أهله؛ فتراه ينادي عليهم ويقول : « أهلوا يا آل محمد بعمرة في حج »(٣) .

ولما رأى ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب غير متجهزة للحج قال لها : « أما تريدين الحج هذا العام ؟ فقالت : أنا امرأة سقيمة ، وأنا أخاف الحبس ، قال : فأحرمي واشترطي أن محلك حيث حبست »(٤) .

---

(١) رواه الترمذي في المناقب (٣٨٩٥) عن عائشة، ورواه الدارمي (٢٢٦٠) ، وذكره الألباني في صحيح الترمذي رقم (٣٠٥٧) .

(٢) متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان (١١٩٩) . البخاري في العتق رقم (٨٩٣) ، ومسلم الإمارة رقم (١٨٢٩) عن ابن عمر .

(٣) رواه أحمد في المسند (٢٦٥٤٨) عن أم سلمة، وقال محققوه: إسناده صحيح، ورواه الطبراني في الكبير (٢٣ / ٧٩٢) والبيهقي في السنن (٤ / ٣٥٥) .

(٤) رواه أحمد في المسند (٢٦٩٥٣) عن أسماء بنت أبي بكر، وقال محققوه: حديث صحيح لغيره، ورواه ابن ماجه (٢٩٣٦) والطبراني في الكبير (٢٤ / ٢٣٣) . وذكره الألباني في الصحيحة رقم (٢٣٧٥) .

ولما دخل على عائشة ووجدها تبكي بسبب حيضتها قال لها : « فلا يضرك ، أنت من بنات آدم كتب الله عليك ما كتب عليهن ، فكوني في حجك عسى الله أن يرزقكها »(١).

فانظر **أخي الحبيب** كيف كان رسول الله ﷺ مع أهله ناصحاً لهم ومعلماً إياهم ، وكم من أناس الآن يذهبون بأهلهم فإذا وصلوا مكة انفصلوا عن بعضهم ، حتى ترى النساء يذهبن وحدهن إلى بيت الله ؛ بينما الرجل نائم في مسكنه ، أو منشغل ببيعه وشرائه، أو ترى العكس نساء انشغلن بالبيع والشراء دون أن يجدن نصيحة من والد ، أو تعليماً من زوج ، أو تصحيحاً من أخ ودود .

٤ - المصطفى ﷺ معلماً لأمته :

لم يجتمع لرسول الله ﷺ عدد مثل الذي اجتمع له في حجة الوداع ؛ مائة ألف أو يزيدون ، وقد استغل النبي ﷺ هذا الجمع ليعلمه مبادئ الإسلام ، بل كان ﷺ شديد الحرص على ذلك ، وكلما عنّ له شيء أمر واحداً من أصحابه أن ينصت له الناس، أو يسكت له القوم ، ليسمع الحاضر ، ويتعلم الشاهد ، ويذكر لنا بلال رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له : « يا بلال أسكت الناس »(٢).

ويخبر جرير بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال له : « استنصت لي الناس »(٣).

---

(١) رواه البخاري في الحج رقم (١٧٨٨) ، ومسلم في الحج (١٢١١) عن عائشة.

(٢) رواه ابن ماجه في الحج(٣٠٢٤) عن بلال . وذكره الألباني في الصحيحة رقم (٢٤٥٠) .

(٣) رواه البخاري في الفتن رقم (٧٠٨٠) عن جرير .

وكان تعليم النبي ﷺ لأمته على أنواع منها :

الأول : إيضاحه ما عنّ لهم من مسائل في الحج : كإيضاحه ﷺ للسائل : أي الحج أفضل ؟ قال ﷺ : « العج[١] والثج[٢] »[٣]، وقوله للمرأة الخثعمية التي قالت يا رسول الله إن أبي شيخ كبير ، عليه فريضة الله في الحج وهو لا يستطيع أن يستوي على ظهر بعيره . فقال ﷺ : « حجي عنه »[٤].

الثاني : إبراز مقاصد الإسلام العظمى ومعالمه الكبرى : كما في إبرازه لمكانة الصلاة والصيام والزكاة في قوله ﷺ : « أيها الناس اتقوا ربكم ، وصلوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأدوا زكاة أموالكم ، وأطيعوا ذا أمركم ، تدخلوا جنة ربكم »[٥] وكما في قوله ﷺ : « تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به : كتاب الله »[٦].

الثالث : بيان كبائر الذنوب والتحذير منها ، كما في قوله ﷺ : أتدرون أي يوم هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه . فقال ﷺ : أليس بيوم النحر ؟ قلنا : بلى

---

(١) العج : رفع الصوت بالتلبية .

(٢) الثج : ذبح الهدي .

(٣) رواه الترمذي في الحج (٨٢٧) عن أبي بكر . وذكره الألباني في صحيح الترمذي رقم (٦٦١) .

(٤) رواه مسلم في الحج رقم (١٣٣٥) عن الفضل .

(٥) رواه أحمد في المسند (٢٢١٦١) عن أبي أمامة ، وقال محققوه : إسناده صحيح على شرط مسلم . رواه الترمذي (٦١٦) والحاكم (١/ ٩) . وذكره الألباني في صحيح الترمذي رقم (٥٠٢) .

(٦) رواه مسلم في الحج رقم (١٣٣٥) عن الفضل .

يا رسول الله . قال : فأي شهر هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : أليس بذي الحجة ؟ قلنا : بلى يا رسول الله . قال ﷺ : فأي بلد هذا؟ قلنا الله ورسوله أعلم . قال : حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه . قال ﷺ : أليس بالبلدة ؟ قلنا: بلى يا رسول الله . قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ؛ كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، فليبلغ الشاهد الغائب(١) .

ولقد كان مقصد النبي ﷺ من وراء هذا التعليم وذاك البلاغ كما يقول الشيخ الغزالي : أن يفرغ في آذان الناس وقلوبهم ما لديه من نصح ، كان يحس أن هذا الركب سينطلق في ميدان الحياة وحده ، فهو يصرخ به كما يصرخ الوالد بابنه الذي انطلق به القطار، يوصيه بالرشد ، ويذكره بما ينفعه أبداً (٢) .

لقد نظر النبي ﷺ إلى الألوف المؤلفة ، وهي تلبي وتهرع إلى طاعة الله ، فشرح صدره انقيادها للحق ، واهتداؤها إلى الإسلام ، وعزم أن يغرس في قلوبهم لباب الدين ، وأن ينتهز هذا التجمع الكريم ليقول كلمات تبدد آخر ما أبقت الجاهلية من مخلفات في النفوس ، وتؤكد ما يحرص الإسلام على إشاعته من آداب وعقائد وأحكام(٣) .

ولقد استخدم النبي ﷺ من الوسائل التعليمية في حجة الوداع ما يلي :

١ ـ التعليم بالقدوة : ولهذا قال ﷺ : «لتأخذوا عني

---

(١) متفق عليه . البخاري رقم (١٧٤١) ، و مسلم في القسامة والمحاربين رقم (١٦٧٩) عن أبي بكرة .

(٢) انظر : فقه السيرة / محمد الغزالي / ص ٦٨٤ ، ٦٨٥ .

(٣) انظر : السابق / ص ٦٨١ .

مناسككم»[1]؛ ومن ثم فلم يكتف النبي ﷺ بمجرد القول ؛ بل وقف ليعلم الناس عملياً .

٢- حرص النبي ﷺ على تبليغ الشاهد الغائب : وهو يريد من ذلك أن تعم الفائدة ، ولأن الغائب قد يكون أفهم للعلم وأكثر حرصاً عليه من الحاضر الذي سمع. فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذ : « وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به. كتاب الله. وأنتم تسألون عني. فما أنتم قائلون ؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت . فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: اللهم اشهد ! اللهم اشهد ! ثلاث مرات[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم النحر فقال: « يا أيها الناس أي يوم هذا ؟ قالوا: يوم حرام، قال: فأي بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام ، قال: فأي شهر هذا ؟ قالوا: شهر حرام، قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا. فأعادها مراراً ، ثم رفع رأسه فقال : اللهم هل بلغت اللهم هل بلغت »[3].

وفي رواية يقول ﷺ : « أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر ، إلا بالتقوى . أبلغت ؟ قالوا : بلغ رسول الله ﷺ ».

---

(١) سبق تخريجه . (٢) سبق تخريجه . (٣) سبق تخريجه .

٣- تكرار الخطب : ولهذا فقد أثر عنه ﷺ أربع خطب يسن إلقاؤها في موسم الحج ، وهذه الخطب هي :

الخطبة الأولى : يوم السابع من ذي الحجة عند الكعبة بعد صلاة الظهر .

الخطبة الثانية : يوم التاسع من ذي الحجة « يوم عرفة » قبل صلاة الظهر والعصر .

الخطبة الثالثة : يوم العاشر من ذي الحجة وهو « يوم النحر » .

الخطبة الرابعة : يوم الثاني عشر من ذي الحجة وهو « يوم النفر الأول » .

٤ - جذب النبي ﷺ انتباه الحجيج لما يقوله : وذلك بسؤالهم عن اليوم الذي هم فيه وكذلك عن الشهر والبلد كما في قوله ﷺ : أتدرون أي يوم هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم؛ حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه . فقال ﷺ : أليس بيوم النحر؟ قلنا : بلى يا رسول الله . قال : فأي شهر هذا؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : أليس بذي الحجة ؟ قلنا : بلى يا رسول الله . قال ﷺ : فأي بلد هذا ؟ قلنا الله ورسوله أعلم . قال : حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه . قال ﷺ : أليس بالبلدة ؟ قلنا : بلى يا رسول الله . قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ؛ كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، فليبلغ الشاهد الغائب[١] .

---

(١) سبق تخريجه .

٥ - إسكات الناس له ﷺ كما قال لبلال رضي الله عنه : « أسكت الناس »[١] وفي هذا حرص على وصول العلم والدين إلى الناس .

٦- عدم الاقتصار على نفسه ﷺ في تبليغ الناس : بل كان يأمر من أصحابه من يردد كلامه كما أمر علياً رضي الله عنه ليردد كلامه إلى الناس في منى ، و أمر ربيعة بن أمية في عرفة ، و أمر بشر بن سحيم أيام التشريق حين أمره الرسول ﷺ أن ينادي في الناس : « لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة »[٢]، بل وأرسل الرسل إلى الحجيج في أماكنهم ليعلموا الناس شرائعهم .

٧ - حرصه ﷺ على أن يردف خلفه أحداً من أصحابه : لينقلوا للناس فعل النبي ﷺ فقد أردف خلفه أسامة بن زيد ، وتارة الفضل بن العباس ، ويلاحظ صغر سن أسامة والفضل ؛ لينقلوا ما سمعوه في حياة النبي ﷺ وبعد مماته ولهذا قال الناس عن الفضل لما أردفه النبي ﷺ : يخبرنا صاحبنا بما صنع رسول الله ﷺ .

فاحرص **أخي الحبيب** أن تكون معلماً أو متعلماً ، ولا تكن الثالثة فتهلك ، علِّم ما تعلمت وتعلَّم ما جهلت ، ولئن تكون متعلماً خير لك من أن تكون جاهلاً .

٥ - المصطفى ﷺ مفتياً لأمته :

الإفتاء من أهم وظائف النبي ﷺ وقد كانت حياة النبي ﷺ

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) رواه أحمد (٥٩٤) عن علي، وقال محققوه: حديث صحيح، رجاله ثقات، ورواه الترمذي (٨٧١) والدارمي (١٩١٩) والبزار (٧٨٥) النسائي والحاكم (٤ / ١٧٨) ، وذكره الألباني في صحيح النسائي رقم (٢٧٦٩) .

مليئة بالإجابة عما يستفتيه فيه الناس ، وكان ﷺ يفتي الناس بما علمه ربه ، وإلا أمسك النبي ﷺ حتى يأتيه الوحي من السماء كما في قوله لجبريل « ما المسئول عنها بأعلم من السائل »[1]، وكما في قوله ﷺ : « لا أدري حتى أسأل جبريل »، و كما في حديث ابن عمر : أن رجلا سأل النبي ﷺ أي البقاع شر ؟ قال : لا أدري حتى أسأل جبريل . فسأل جبريل فقال : لا أدري حتى أسأل ميكائيل . فجاء فقال : خير البقاع المساجد ، وشرها الأسواق[2].

وقد جمع الإمام ابن القيم في كتابه إعلام الموقعين عدداً كبيراً من فتاوى النبي ﷺ بلغت ١٦٠ صفحة من ٣٣٠ إلى ٤٩٩ من المجلد الرابع ، وقد ضمن ابن القيم ـ رحمه الله – هذه الفتاوى ما كان من فتاوى النبي ﷺ في الحج .

وعبادة الحج تحتاج أكثر من غيرها إلى من يفتي الناس ويعلمهم؛ ذلك أنها عبادة عملية ، كما أن كثرة أيامها وتعدد نسكها، واشتمالها على أعمال عدة ؛ يجعل السائل يسأل عما يعرض له في هذه النسك .

وفي حجة الوداع كان ﷺ حريصاً كل الحرص على إفتاء الناس؛ ولهذا لم يعتزل النبي ﷺ القوم ، بل كان ﷺ مخالطاً الناس قريباً منهم ؛ ليسأل كل واحد منهم عما يعنّ له من أسئلة ، أو يجدّ له من أمور .

---

(١) رواه مسلم في الإيمان رقم (١٠) عن عمر .

(٢) رواه الحاكم (١ / ١٦٧) عن أنس وقال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني في الأوسط وفيه عبيد بن واقد القيسى وهو ضعيف (٢ / ٦) و رواه ابن حبان (١٥٩٨) . وذكره الألباني في صحيح الموارد رقم (٢٥٨) .

ولهذا قال جابر رضي الله عنه واصفاً اختلاط النبي ﷺ برعيته : « ثم ركب ﷺ القصواء ، حتى إذا استوت به ناقته على البيداء ، نظرت إلى مد بصري بين يديه من راكب وماش ، وعن يمينه مثل ذلك ، وعن يساره مثل ذلك ، ومن خلفه مثل ذلك »(١) .

وقد وصف قدامة العامري اختلاط النبي ﷺ بالناس يوم النحر ؛ فقال واصفاً النبي ﷺ عند الرمي : « رأيت رسول الله رمى الجمرة يوم النحر على ناقة صهباء ، لا ضرب ولا طرد ، ولا إليك إليك (٢) »(٣) .

وقال ابن عباس كما في مسند أحمد : « كان الناس لا يصدفون (٤) عن رسول الله ﷺ ولا يدفعون ، فطاف على بعير ليستمعوا إليه ، وليروا مكانه » .

وفي رواية أخرى يقول ابن عباس : « وقف النبي ﷺ للناس يفتيهم »(٥) . وأكد هذا جابر رضي الله عنه حين قال : « طاف رسول الله ﷺ بالبيت في حجة الوداع على راحلته ، يستلم الحجر بمحجنه (٦) ؛ لأن يراه الناس ، وليشرف ، وليسألوه »(٧) .

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) طرد ، ولا إليك إليك هو كما يقال الطَّرِيقَ الطَّرِيقَ ، ويُفعل بين يَدَى المراء، ومعناه تَنَحَّ وأبعد .وتكريره للتأكيد .

(٣) رواه أحمد (١٥٤١١) عن قدامة بن عبد الله ، وقال محققوه: إسناده حسن، ورواه النسائي في المجتبى (٥ / ٢٧٠) وابن ماجه (٣٠٣٥) . وذكره الألباني في صحيح ابن ماجه رقم (٢٤٦١) .

(٤) صدف : الصُّدُوف: المَيْلُ عن الشيء ، و صَدَفَ ونَكَبَ إذا عَدَلَ ؛ويصْدف عنه ، أي : يُعْرِض عنه . ويقال : صدَفَ عنه ، بمعنى صَدَّ عنه .

(٥) رواه البخاري في الاستئذان رقم (٦٢٢٨) عن ابن عباس.

(٦) المحجن العصا المُعْوَجَّة الرأس .

(٧) رواه مسلم في الحج رقم (١٢٧٣) عن جابر.

نماذج من فتاوى المصطفى ﷺ في الحج

فتاوى في فضل الحج وكونه جهادا في سبيل الله :

سئل رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل ؟ قال : « إيمان بالله ورسوله ». قيل ثم ماذا ؟ قال : « حج مبرور »(١).

وسألته عائشة رضي الله عنها قالت : يا رسول الله ، نرى الجهاد أفضل العمل . أفلا نجاهد ؟ قال : « لكُن أفضل الجهاد حج مبرور »(٢).

وسأله رجل فقال : إني جبان وإني ضعيف قال له عليه الصلاة والسلام : « هلم إلى جهاد لا شوكة فيه . الحج »(٣).

وسألته عائشة رضي الله عنها قالت : هل على النساء جهاد ؟ قال : « نعم عليهن جهاد لا قتال فيه . الحج والعمرة »(٤).

فتاوى في وجوب الحج في العمر مرة واحدة :

قال ﷺ : « يا أيها الناس إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا » فسأله رجل ، أكل عام يا رسول الله ؟! فقال ﷺ : « لو قلت : نعم لوجبت ولما استطعتم » ثم قال : « ذروني ما تركتكم »(٥).

وسأله الأقرع بن حابس فقال : أفي كل عام يا رسول الله ؟ قال: «لو قلتها لوجبت، ولو وجبت لما لم تعملوا بها، الحج مرة ، فمن زاد فهو تطوع »(٦).

---

(١) سبق تخريجه. (٢) سبق تخريجه. (٣) سبق تخريجه.

(٤) رواه أحمد (٢٥٣٢٢) عن عائشة، وقال محققوه: إسناده صحيح ، رجاله ثقات رجال الشيخين، ورواه ابن خزيمة (٣٠٧٤) والدارقطني (٢ / ٢٨٤) وابن ماجه (٢٩٠١) . وذكره الألباني في صحيح ابن ماجه رقم (٢٣٤٥) .

(٥) رواه مسلم في الحج (١٣٧٣) عن أبي هريرة.

(٦) رواه أحمد (٢٣٠٤) عن ابن عباس، وقال محققوه: حديث صحيح، ورواه البيهقي (٤ / ٣٢٦) والدارمي (١٧٨٨) والنسائي (٥ / ١١١).

فتاوى تتعلق بالمواقيت :

وسأله رجل فقال : من أين نهل يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : « يهل أهل المدينة من ذي الحليفة ، وأهل الشام من الجحفة ، وأهل نجد من قرن ، وأهل اليمن من يلملم »(١).

فتاوى تتعلق بالإهلال بالحج :

أفتى علياً حين قدم من اليمن ، فسأله : « بم أهللت ؟ » فقال علي : أهللت بإهلال رسول الله ﷺ . فقال له ﷺ : « فإن معي الهدي فلا تحل »(٢).

وقال لأبي موسى : « بم أهللت ؟ » قال : أهللت بإهلال النبي ﷺ . قال له : « هل سقت من هدي ؟ » قال : لا . فقال له النبي ﷺ : « فطف بالبيت ، وبالصفا والمروة ، ثم حل »(٣).

فتاوى تتعلق بالمحظورات وما يستثنى منها :

سأله أبو قتادة عن الصيد الذي صادوه وهو حلال فأكل أصحابه منه وهم محرمون . فقال ﷺ : « هل معكم منه شيء ؟ فناوله العضد ، فأكلها وهو محرم »(٤).

وسأله رجل ما يلبس المحرم من الثياب ؟ فقال رسول الله ﷺ

---

(١) رواه أحمد (٣٠٦٥) عن ابن عباس، وقال محققوه: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين، ورواه الترمذي ، وذكره الألباني في صحيح الترمذي رقم (٦٦٥) .

(٢) رواه مسلم في الحج (١٢٥٠) عن أنس.

(٣) رواه البخاري في الحج رقم(١٧٢٤) ومسلم في الحج (١٢٢١)عن أبي موسى .

(٤) رواه البخاري في الحج رقم(١٨٢١) ، ومسلم في الحج (١١٩٦) عن أبي قتادة .

« لا يلبس القمص ، ولا العمائم ، ولا السراويل ، ولا البرانس[١] ، ولا الخفاف ، إلا ألا يجد نعلين فليلبس الخفين ، وليقطعهما أسفل من الكعبين »[٢] .

وسأله رجل فقال : يا رسول الله ، كيف ترى في رجل أحرم بعمرة في جبة بعد ما تضمخ بطيب ؟ فقال له النبي ﷺ : « أما الطيب الذي بك فاغسله . وأما الجبة فانزعها ، ثم اصنع في عمرتك ما تصنع في حجك »[٣] .

وسئل عما يقتل المحرم ؟ قال : « الحية ، والعقرب ، والفويسقة[٤] ، ويرمي الغراب ولا يقتله ، والكلب العقور ، والحدأة »[٥] .

فتاوى في الحج عن الغير :

سأله رجل فقال : إن أختي نذرت أن تحج ، وإنها ماتت ؟ فقال ﷺ « لو كان عليها دين أكنت قاضيه ؟ » قال : نعم . قال « فاقض الله ، فهو أحق بالقضاء »[٦] .

---

(١) البرنس : كل ثوب رأسه منه ملتزق به ؛ البُرْنُس قلنسوة طويلة وكان النساك يلبسونها في صدر الإسلام ، و تَبَرْنَس الرجل : لبس البرنس .

(٢) رواه البخاري في العلم رقم (١٣٤) عن ابن عمر .

(٣) رواه البخاري في الحج رقم (١٥٣٦) عن يعلى بن أمية .

(٤) الفُوَيْسِقَةُ : الفأرة . و سمِّي الفأرة فُوَيْسِقَةً تصغير فاسِقَةٍ لخروجها من جُحْرها على الناس وإفسادها .

(٥) رواه أحمد (١٠٩٩٠) عن أبي سعيد ، وقال محققوه : إسناده ضعيف ، ورواه الترمذي (٨٣٨) وأبو داود (١٨٤٨) . وذكره الألباني في صحيح أبي داوود رقم (١٦٢٩) .

(٦) رواه البخاري في الحج (١٨٥٢) عن ابن عباس .

وأتاه رجل فقال : يا رسول الله إن أبي شيخ كبير لا يستطيع الحج ولا العمرة ولا الظعن ؟ قال « حج عن أبيك واعتمر»(١) .

وسألته امرأة قالت : إن أمي ماتت ولم تحج أفاحج عنها ؟ قال : «نعم حجي عنها»(٢).

وسألته المرأة الخثعمية فقالت : « يا رسول الله إن أبي شيخ كبير. عليه فريضة الله في الحج وهو لا يستطيع أن يستوي على ظهر بعيره ؟» فقال ﷺ : « حجي عنه »(٣).

فتاوى في ما يعدل الحجة مع الرسول ﷺ :

وسألته أم معقل فقالت : يا رسول الله ، إن عليّ حجة وإن لأبي معقل بكراً (٤). فقال أبو معقل : صدقت قد جعلته في سبيل الله . فقال له ﷺ : « أعطها فلتحج عليه فإنه في سبيل الله » فأعطاها البكر فقالت : يا رسول الله ، إني امرأة قد كبرت سني ، وسقمت فهل من عمل يجزي عني من حجتي ؟ فقال : « عمرة في رمضان تجزئ عن حجة »(٥).

---

(١) رواه أحمد (١٦١٨٤) عن أبي رزين، وقال محققوه: إسناده صحيح رجاله ثقات، ورواه أبو داود (١٨١٠) والترمذي (٩٣٠) . وذكره الألباني في صحيح الترمذي رقم (٧٣٨) .

(٢) رواه مسلم في الحج (١١٤٩) عن بريدة.

(٣) رواه مسلم في الحج رقم (١٣٣٥) عن الفضل.

(٤) البكر من الإبل هو ما يركب أي يمكن ظهره من الركوب ، وأدنى ذلك أن يأتي عليه سنتان .

(٥) رواه أحمد (٢٧١٠٧) عن أم معقل، وقال محققوه: إسناده ضعيف بهذه السياقة، ورواه أبو داوود (١٩٨٩) والدارمي (١٨٦٠) . وذكره الألباني في صحيح أبي داوود (١٧٥١) .

فتاوى في النذر المتعلق بالحج :

سأله عقبة ، قال : يا رسول الله نذرت أختي أن تمشي إلى بيت الله الحرام حافية ؟ فقال ﷺ : « لتمش ، ولتركب »(١).

وسئل ﷺ عن امرأة نذرت أن تمشي إلى بيت الله ، فقال : « إن الله لغني عن مشيها . مروها فلتركب »(٢).

وسألته عائشة رضي الله عنها عن الحجر ؟ فقال : « هو من البيت »(٣)، وفي رواية قالت : يا رسول الله : إني نذرت أن أصلي في البيت . قال : « صلي في الحجر فإن الحجر من البيت ».

فتاوى في خروج المرأة ومعها المحرم :

وسأله رجل ، فقال : يا رسول الله إن امرأتي خرجت حاجة وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا ، فقال ﷺ : « انطلق فحج مع امرأتك »(٤) .

فتاوى تتعلق بالهدي :

رأى رسول الله رجلا يسوق بدنة ، فقال ﷺ : « اركبها » فقال : إنها بدنة . فقال ﷺ : « اركبها »(٥).

---

(١) رواه البخاري في الحج رقم(١٨٦٦) ، ومسلم في الأيمان (١٦٤٤) عن عقبة.

(٢) رواه الترمذي في الحج (١٥٣٦) عن أنس . وذكره الألباني في صحيح الترمذي رقم (١٢٤٢) .

(٣) رواه ابن ماجه في الحج (٢٩٥٥) عن عائشة. وذكره الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٣٩٢) .

(٤) رواه مسلم في الحج رقم (١٣٤١) عن ابن عباس .

(٥) رواه البخاري في الأدب رقم(٦١٥٩) ، ومسلم في الحج (١٣٢٢) عن أنس.

سأله أبو قبيصة : إن عطب منها شيء ، فخشيت عليه موتا، فانحرها. ثم اغمس نعلها في دمها[١]، ثم اضرب به صفحتها. ولا تطعمها أنت ولا أحد من أهل رفقتك[٢].

فتاوى تتعلق بالعمل في الحج :

سأله رجل ، فقال يا رسول الله : إني أكري[٣] في هذا الوجه وكان الناس يقولون : ليس لك حج . فسكت رسول الله ﷺ فلم يجبه حتى نزلت هذه الآية ﴿ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ [البقرة: ١٩٨] فأرسل إليه رسول الله ﷺ وقرأها عليه . وقال : « لك حج »[٤].

فتاوى تتعلق بيوم منى وعرفة :

سأله عروة بن مضرس ، فقال : يا رسول الله جئت من جبل طيء . أذللت مطيتي، وأتعبت نفسي ، والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه . هل لي من حج ؟ فقال رسول الله ﷺ : « من شهد

---

(١) معنى ذلك : إن كان في طريقه وساق هديه وخاف عليه الهلاك فله ذبحه ؛ فإذا ذبحه غمس نعله التي قلده إياها في دمه وضرب بها صفحة سنامه وتركه موضعه ليعلم من مر به أنه هدى فيأكله ولا يجوز للمهدى ولا لسائق هذا الهدى وقائده الأكل منه .

(٢) رواه مسلم في الحج (١٣٢٦) عن أبي قبيصة .

(٣) الكَرِيُّ : بوزن الصَّبي الذي يُكْري دابَّته . يقال أكْرَى دابَّته فهو مُكْرٍ وكَرِيّ .

(٤) رواه أبو داود في الحج (١٧٣٣) عن أبي أمامة. وذكره الألباني في صحيح أبي داوود رقم (١٥٢٥).

صلاتنا هذه ، ووقف معنا حتى ندفع ، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً ، فقد تم حجه ، وقضى تفثه »(١) .

وسأله ناس من أهل نجد وهو بعرفة ، فقالوا : يا رسول الله ، كيف الحج ؟ فأمر منادياً ينادي : « الحج عرفة ، من جاء ليلة جمع قبل طلوع الفجر فقد أدرك الحج . أيام منى ثلاثة فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه »(٢) .

وسأله أصحابه ، قالوا : يا رسول الله ألا نبني لك بناء يظلك بمنى ؟ قال : « لا ، منى مناخ من سبق »(٣) .

فتاوى تتعلق بأعمال النحر والتقديم والتأخير فيها :

سأله علي بن أبي طالب عن يوم الحج الأكبر ، فقال : « يوم النحر »(٤) .

وسأله رجل فقال : لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح ؟ فقال : « اذبح ولا حرج » وسأله آخر فقال : لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي ؟ فقال النبي ﷺ : « ارم ولا حرج »(٥) .

---

(١) رواه أحمد (١٦٢٠٨) عن عروة بن مضرس، وقال محققوه : حديث صحيح ، رجاله ثقات، ورواه الترمذي (٨٩١) وأبو داود . وذكره الألباني في صحيح أبي داود رقم(١٧١٨) .

(٢) رواه أحمد (١٨٧٧٤) عن عبد الرحمن بن يعمر ، وقال محققوه: إسناده صحيح، ورواه الترمذي (٨٨٩) والنسائي (٥ / ٢٥٦) وأبو داود (١٩٤٩) . وذكره الألباني في صحيح الترمذي رقم(٧٠٥) .

(٣) رواه أحمد (٢٥٥٤٤) عن عائشة ، وقال محققوه: إسناده ضعيف ، ورواه ابن ماجه (٣٠٠٦) و الترمذي (٨٨١) ، وذكره الألباني في صحيح الجامع (٦٦٢٠) .

(٤) رواه الترمذي في الحج (٩٥٨) عن علي . وذكره الألباني في صحيح الترمذي رقم (٢٤٦٥) .

(٥) رواه البخاري في الحج رقم(١٧٣٦) عن ابن عمرو .

وسأله رجل فقال : حلقت قبل أن أذبح ؟ فقال : « اذبح ولا حرج » قال: رميت بعد ما أمسيت؟ فقال النبي ﷺ : « لا حرج »(١).

وسأله رجل ، فقال : يا رسول الله ، سعيت قبل أن أطوف ؟ قال : « لا حرج »(٢).

فتاوى نسائية :

سألته أسماء بنت عميس حين ولدت بذي الحليفة ، ماذا تصنع؟ فقال لها النبي ﷺ : « اغتسلي ، واستثفري بثوب (٣)، ثم أهلي »(٤).

وسألته ضباعة بنت الزبير ، قالت : يا رسول الله ، إني أريد الحج ، وأنا شاكية ؟ فقال ﷺ : « حجي واشترطي : إن محلي حيث حبستني »(٥).

وشكت إليه أم سلمة رضي الله عنها ، فقال لها النبي ﷺ : « طوفي من وراء الناس وأنت راكبة »(٦).

وسألته عائشة لما حاضت ، فقال ﷺ : « افعلي ما يفعل الحاج ، غير أن لا تطوفي بالبيت حتى تطهري »(٧).

---

(١) رواه البخاري في الحج رقم (١٧٢٣) عن ابن عباس.
(٢) رواه أبو داود في الحج (٢٠١٤) عن عبد الله بن عمرو. وذكره الألباني في صحيح أبي داود رقم (١٧٧٥).
(٣) أي اجعلي موضع خروج الدم عصابة تمنع الدم.
(٤) رواه مسلم في الحج رقم (١٢١٨) عن جابر.
(٥) رواه مسلم في الحج رقم (١٢٠٧) عن عائشة.
(٦) رواه البخاري في التفسير رقم(٤٨٥٣) ، ومسلم في الحج رقم (١٢٧٦) عن أم سلمة.
(٧) رواه البخاري في الحيض رقم (٣٠٥) عن عائشة.

وسألته عائشة لما حاضت صفية بنت حيي بعد ما أفاضت. قالت عائشة : فذكرت حيضتها لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : أحابستنا هي ؟ قالت : فقلت : يا رسول الله ! إنها قد كانت أفاضت وطافت بالبيت. ثم حاضت بعد الإفاضة. فقال رسول الله ﷺ : « فلتنفر »(١).

فتاوى تتعلق بفسخ الحج إلى عمرة :

سأله سراقة بن مالك ، فقال : يا رسول الله عمرتنا هذه لعامنا أم لأبد ؟ فشبك رسول الله ﷺ أصابعه واحدة في الأخرى ، وقال : « دخلت العمرة في الحجة ، لا بل لأبد الأبد »(٢).

وسألته حفصة ، قالت له : ما شأن الناس حلوا ولم تحل أنت من عمرتك ؟ قال : « إني قلدت هديي ، ولبدت رأسي ، فلا أحل حتى أنحر هديي »(٣).

٦ - المصطفى ﷺ غائظاً لعدوه مخالفاً له :

كان رسول الله ﷺ في حروبه مع قريش ، يحاربهم بكل وسيلة سهلت ، وكان من وسائله ﷺ الحرب النفسية ، وهو في ذلك يمتثل لقوله تعالى ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ** ﴾ [التوبة: ١٢٠]. وقد ذكر

(١) رواه مسلم في الحج رقم (١٢١١) عن عائشة.
(٢) رواه مسلم في الحج رقم (١٢١٨) عن جابر.
(٣) رواه البخاري في الحج رقم (١٥٦٦) ومسلم في الحج رقم (١٢٢٩) عن ابن عمر .

ابن القيم : أن رسول الله ﷺ كان يكيد للمشركين بكل ما يستطيع(١).

وقد كان هذا هو هدي النبي ﷺ دائماً ، ولما كان النبي ﷺ في غزوة الحديبية ساق معه في هديه جمل أبي جهل الذي غنمه في بدر ؛ ليراه المشركون فيزدادوا غيظاً إلى غيظهم .

وفي عمرة القضاء دخل النبي ﷺ مكة في صورة لم تر قريش مثلها قط ؛ حيث دخل ﷺ وأصحابه يلتفون به من كل جانب عالية أصواتهم بالتلبية لله عز وجل ، ولما أشاع المشركون أن حمّى المدينة قد أوهنت أصحاب النبي ﷺ ؛ واصطف المشركون عند دار الندوة ليروا وهن الصحابة ، هنا أشار النبي ﷺ على أصحابه بالرمل فرملوا ومشوا بين الركنين، فقال المشركون : هؤلاء الذين تزعمون أن الحمى وهنتهم(٢).

كما أمر النبي ﷺ أصحابه أن يبنوا مسجد الطائف موضع اللات والعزى .

ولما كان نزوله ﷺ بمنى نادى في أصحابه قائلاً : «نحن نازلون غداً بخيف بني كنانة »(٣).

وقد بدت مخالفة النبي ﷺ لأعدائه واضحة في حجه ؛ ومن ذلك :

١ – يتجلى ذلك في منع المشركين والعرايا من الطواف ، حيث

---

(١) زاد المعاد / ج٣ / ص ٣٧١ .

(٢) رواه البخاري في الحج رقم (١٦٠٢) ومسلم في الحج رقم (١٢٦٦) عن ابن عباس .

(٣) رواه البخاري في الحج رقم (١٥٨٨) عن أسامة بن زيد .

أرسل ﷺ في حجة أبي بكر علياً ليؤذن في الناس : «لا يحج بالبيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان..»(١).

٢ – كما خالف النبي ﷺ المشركين في وقوفهم بالمزدلفة ، فجعل الوقوف بعرفة لا بالمزدلفة .

٣ –كما جعل الإفاضة من عرفة بعد المغيب لا قبله ، كما كانت تفيض قريش قبل المغيب .

وهنا عليك أخي الحاج أن تغيظ أعداء الله أينما كانوا ،، ففي إحرامك غيظ لهم ، وفي تلبيتك غيظ لهم ، وفي نحرك غيظ لهم ، وفي حلقك غيظ لهم ؛ فاحرص على غيظهم ، واحرص على مخالفة أهل البدع والأهواء . تنل الأجر العظيم .

٧ – المصطفى ﷺ ليناً في وعظه :

الداعية إلى الله سبحانه وتعالى يحرص كل الحرص على أن تسيطر تصرفاته على قلوب الناس ، ووظيفة الداعية ليست مجرد تبليغ الدعوة إلى الناس ، أخذوها أم لا ! بل هو حريص على وصول الدعوة إلى مدعويه ، ومن أعظم طرق وصول الدعوة إلى الناس اللين في الوعظ . وقد قال ﷺ لعائشة : «يا عائشة إن الله يحب الرفق ، ويعطي على الرفق مالا يعطي على العنف ومالا يعطي على ما سواه»(٢).

---

(١) رواه البخاري في الصلاة (٣٦٩) عن علي .

(٢) رواه البخاري في الدعوات رقم (٦٣٩٥) ، ومسلم في السلام (٢١٦٥) عن عائشة.

ومن كلامه ﷺ أيضاً « إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه »(١).

ولله در الأصمعي حين قال :

ولم أر مثل الرفق في أمره ... أخرج العذراء من خدرها

من يستعن بالرفق في أمره ... قد يخرج الحية من جحرها

وقد عرف لينه ﷺ في حجه ، ولا أدل على ذلك من لينه ﷺ مع أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – حين حاضت مداعباً إياها : « ما يبكيك يا هنتاه(٢)؟ » ثم قال لها ﷺ مطيباً خاطرها : « فلا يضرك أنت من بنات آدم ، كتب الله عليك ما كتب عليهن »(٣).

ولما انتهت رضي الله عنها من حجتها وحزنت أن ترجع بحج دون عمرة كما رجعت صواحبها ، وقالت : أترجع صواحبي بحج وعمرة ، وأرجع أنا بالحج ؟ فأمر النبي ﷺ عبد الرحمن بن أبي بكر فذهب بها إلى التنعيم (٤)، وهذا ما جعل جابراً رضي الله عنه يقول معلقاً على إرسال أم المؤمنين إلى التنعيم : وكان رسول الله ﷺ رجلاً سهلاً إذا هويت الشيء تابعها عليه(٥).

فانظر رحمك الله إلى قول جابر في وصف النبي ﷺ « سهلاً » وتأمله جيداً وخذ منه أوفر النصيب .

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة رقم (٢٥٩٤) عن عائشة.

(٢) هنتاه : يا هذه .

(٣) رواه البخاري في الحج رقم (١٥٦٠) عن عائشة.

(٤) رواه أبو داود في الحج (١٧٨٢) عن عائشة، وذكره الألباني في صحيح أبي داود رقم (١٥٦٦) .

(٥) رواه مسلم رقم في الحج (١٢١٣) عن جابر.

ثم هل رأيت ليناً كهذا ؟ حين سمع رجلاً يلبي عن غيره قائلاً: لبيك عن شبرمة فقال ﷺ : «من شبرمة ؟ قال : أخ لي – أو قريب لي – قال : حججت عن نفسك ؟ قال: لا ، قال : حج عن نفسك ، ثم حج عن شبرمة »(١).

وحين وجد ﷺ رجلاً يربط يد آخر بخيط وهو يطوف بالكعبة، « فقطع النبي ﷺ الخيط بيده ثم قال : قده بيده »(٢) .

ولما دخل رجلان في مسجد الخيف وكانا قد صليا في رحالهما، وتنحيا في ناحية من المسجد ولم يصليا مع القوم فنظر إليهما النبي ﷺ ثم قال : « إذا صليتما في رحالكما ثم أتيتما مسجد جماعة فصليا معهم ، فإنها لكما نافلة »(٣).

أرأيت أخي الحبيب : إنه لين في وعظه ،، ليس كبعض المنفرين، يحكي أحد الدعاة فيقول : بأنه دخل مسجداً يوماً ليصلي فسمع الإمام يقول النسوة في الخلف ، فنظر القوم فلم يجدوا نسوة ، فكرر وقال : النسوة في الخلف ؛ حالقوا اللحى في الخلف ، فانفض الناس من خلفه وتركوه .

ومن لينه أيضاً ﷺ ما قاله حين رأى إسراع الناس يوم عرفة وسمع ما سمع من الجلبة الشديدة والصوت المرتفع ، ما كان منه إلا أن

---

(١) رواه أبو داود في الحج (١٨١١) عن ابن عباس . وذكره الألباني في صحيح أبي داود رقم(١٥٩٦) .

(٢) رواه البخاري في الحج رقم (١٦٢٠) عن ابن عباس.

(٣) رواه الترمذي في الصلاة(٢١٩) عن الأسود العامري. وذكره الألباني في صحيح الترمذي رقم ١٨١ .

أشار بسوطه إلى الناس وقال : « أيها الناس عليكم بالسكينة ، فإن البر ليس بالإيضاع »(١).

وانظر إليه ﷺ لما جاءه أبو قتادة وأصحابه بعد اصطياده لهم وهم محرمون ولم يكن أبو قتادة قد أحرم بعد فقال النبي ﷺ : « هل معكم منه شيء ؟ فناوله العضد ، فأكلها وهو محرم »(٢) وفي رواية توضح لين النبي ﷺ أنه قال : هل معكم من شيء ؟ قالوا : معنا رجله. فأخذها رسول الله ﷺ فأكلها (٣).

بل قد ينقلب اللين في الوعظ إلى مداعبة وملاطفة ؛ كصنيعه مع أغيلمة بن عبد المطلب يقول ابن عباس : « قدمنا رسول الله ﷺ أغيلمة بني عبد المطلب على جمرات لنا من جمع ، فجعل يلطح(٤) أفخاذنا ويقول : أبني : لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس »(٥).

فانظر رعاك الله إلى قوله « يلطح أفخاذنا » وهو الضرب الخفيف بباطن الكف وما كان مقصوده ﷺ الضرب ؛ ولكنه لفت النظر والانتباه ، وانظر إلى قوله « أبني » وما فيه من رقة ووداعة ، واحرص على أن يكون هذا هديك في الحج ، فعظ في لين كما كان حبيبك المصطفى ﷺ .

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) رواه البخاري في الحج رقم(١٨٢١) ، ومسلم (١١٩٦) عن أبي قتادة .
(٣) رواه مسلم في الحج (١١٩٦) عن أبي قتادة.
(٤) اللَّطْح : الضرب بالكف وليس بالشديد .
(٥) رواه أحمد (٣٠٠٣) عن ابن عباس، وقال محققوه: إسناده صحيح، رواه ابن ماجه ، وذكره الألباني في صحيح ابن ماجه رقم (٢٤٥١) .

٨ - المصطفى ﷺ حكيماً في أمره ونهيه :

الحكمة هي وضع الشيء في موضعه ، وقد أمر النبي ﷺ أن يكون حكيماً في دعوته ، قال له ربه : ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ** ﴾ [النحل : ١٢٥].

وقارئ سيرة النبي ﷺ يرى الحكمة تشع نوراً في جنباتها ، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يتعجبون من حكمته ﷺ ، ومن أعجب ما رواه البزار عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن أعرابيا جاء إلى رسول الله ﷺ يستعينه في شيء . قال : في دم ، فأعطاه رسول الله ﷺ شيئا ، ثم قال : أحسنت إليك ؟ قال الأعرابي : لا ، ولا أجملت ، فغضب بعض المسلمين وهموا أن يقوموا إليه ، فأشار رسول الله ﷺ إليهم أن كفوا ، فلما قام رسول الله ﷺ وبلغ منزله ؛ دعا الأعرابي إلى البيت فقال : إنما جئتنا تسألنا فأعطيناك فقلت ما قلت ، فزاده رسول الله ﷺ شيئا وقال : أحسنت إليك ؟ فقال الأعرابي : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً . فقال النبي ﷺ : إنك جئتنا تسألنا فأعطيناك ، فقلت ما قلت ، وفي أنفس أصحابي عليك من ذلك شيء، فإذا جئت فقلت بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب عن صدورهم ، فقال : نعم . فلما جاء الأعرابي قال رسول الله ﷺ : إن صاحبكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناه فقال ما قال ، وإنا قد دعوناه فأعطيناه فزعم أنه قد رضي كذلك يا أعرابي ؟ فقال الأعرابي : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً . فقال النبي ﷺ : إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه ، فاتبعها الناس ، فلم يزيدوها إلا نفوراً ، فقال لهم صاحب الناقة : خلوا بيني وبين ناقتي فأنا أرفق بها وأنا أعلم بها ، فتوجه إليها وأخذ لها من قتام

الأرض ، ودعاها حتى جاءت واستجابت وشد عليها رحلها ، وإني لو أطعتكم حين قال ما قال لدخل النار» .

ومن حكمته ﷺ في الحج :

١- ما رواه جابر في حديثه قال : « وأردف الفضل بن عباس ، وكان رجلاً حسن الشعر أبيض وسيماً ، فلما دفع رسول الله ﷺ مرت به ظعن يجرين ، فطفق الفضل ينظر إليهن ، فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل ، فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر ، فحول رسول الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل يصرف وجهه من الشق الآخر (١) .

أرأيت مثل هذا ، الفضل ابن عم رسول الله ﷺ يركب خلف نبيه محمد ﷺ ، فيضرب الشيطان الفضل بسهم من سهامه ، فيحجب النبي ﷺ السهم عن الفضل ، لكن الفضل يعين الشيطان فينظر إلى الجهة الأخرى ؛ ولم يزد النبي ﷺ عن صرف ابن عمه من الجهة الأخرى .

أرأيت لو أن واحداً منا في هذا الموقف ومعه من ينظر إلى النسوة ، ويعيد النظر ، ماذا يكون ؟ سترى الانفعالات والتشنجات ، و« الشخط والنطر» ليس لكون المعصية وقعت ولكن لأن صاحب المعصية لم يراع وجود فلان أو علان .

ولما استفسر العباس عن فعل النبي ﷺ بابنه رد عليه النبي ﷺ قائلاً : « رأيت شاباً وشابة فلم آمن الشيطان عليهما »(٢) .

---

(١) رواه مسلم في الحج رقم (١٢١٨) عن جابر .

(٢) رواه أحمد (٥٦٤) عن علي، وقال محققوه: إسناده حسن ورواه البزار (٥٣٢) ورواه الترمذي . وذكره الألباني في صحيح الترمذي رقم(٧٠٢) .

٢ – وهل رأيت حكمة كهذه يوم أن أمر رسول الله ﷺ من لم يسق الهدي أن يتحلل من إحرامه جاعلاً حجته عمرة فلم يستجب القوم لرسول الله ﷺ وقال بعضهم : نأتي عرفة تقطر مذاكيرنا المنى ! فدخل النبي ﷺ على عائشة مغضباً حتى رأت عائشة – رضي الله عنها – أثر الغضب عليه فقالت مخففة عن النبي ﷺ : من أغضبك يا رسول الله ، أدخله الله النار ؟ قال : أو ما شعرت أني أمرت الناس بأمر ، فإذا هم يترددون ، ولو أني استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي معي حتى أشتريه ، ثم أحل كما حلوا »(١).

هنا تظهر الحكمة فيخرج النبي ﷺ إلى القوم كما في رواية البخاري فيقول لهم : « قد علمتم أني أتقاكم لله وأصدقكم و أبركم، ولولا هديي لحللت كما تحلون ، فحلوا ».

فتأمل معي **أخي الحبيب** كيف فعلت أمنا عائشة ، وكيف فعل رسول الله ﷺ لترى حكمته في كل شيء عليه صلوات الله وسلامه .

٩ – المصطفى ﷺ ميسراً في نسكه :

من العجب العجاب أن يحاول البعض إلزام الناس بما يشق عليهم ، وإجبار الخلق بما فيه شدة عليهم ، وأعجب من هذا أن يكون ذلك باسم الدين .

إن التيسير على خلق الله هو روح هذا الدين ، وإن استقراء نصوص القرآن وصحيح السنة يؤكد على أن التيسير أمر مطلوب ،

---

(١) رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة رقم (٧٣٦٧) ، ومسلم في الحج رقم (١٢١٦) عن جابر .

وقصد مشروع ، وكان إخواننا هؤلاء لم يقرأو قول الله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

أولم يقرأوا قول الله سبحانه : ﴿ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٨].

أولم يسمعوا قوله جل شأنه: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾ [النساء: ٢٨]

وقوله تعالى : ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ [المائدة: ٦]

وقوله عز من قال : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨]

ألم يقل النبي ﷺ لأبي موسى ومعاذ : « يسرا ولا تعسرا »(١).

ألم يقل النبي ﷺ للأمة كلها : « يسروا ولا تعسروا »(٢).

ألم تقل عائشة – رضي الله عنها – : « ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً »(٣).

ألم يقل هو ﷺ : « خير دينكم أيسره »(٤).

---

(١) متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان (١١٣٠) ، رواه البخاري في المغازي رقم (٦١٢٤) ، ومسلم في الجهاد (١٧٣٣) عن أبي موسى ومعاذ.

(٢) متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان (١١٣١) رواه البخاري في كتاب العلم (٦٩) ومسلم في كتاب الجهاد والسير(١٧٣٤) عن أنس.

(٣) متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان (١٥٠٢) رواه البخاري في المناقب رقم (٣٥٦٠) ، ومسلم في الفضائل رقم (٢٣٢٧) عن عائشة.

(٤) رواه أحمد (٢٥٩٣٦) عن أعرابي ، وقال محققوه: إسناده حسن. وذكره الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٣٠٩).

ألم يقل ﷺ في وصف هذه الشريعة : « إني أرسلت بحنفية سمحة ! »(١).

و هذا ما فطن إليه سلفنا الصالح ، وعمل به علماؤنا الأجلاء ، ولهذا قال الإمام سفيان الثوري : إنما العلم الرخصة من ثقة ، أما التشديد فيحسنه كل أحد .

وقال عمير بن إسحاق : كان من أدركت من أصحاب رسول الله ﷺ أكبر ممن سبقني فما رأيت قوما أهون سيرة ولا أقل تشديدا منهم.

إن التشديد إن جاز أن يأخذ به الإنسان على نفسه ، فإنه لا يجب عليه إلزام الناس به ، ولذلك قالوا في وصف محمد بن سيرين: كان أرجى الناس لهذه الأمة ، وأشدهم أزراً على نفسه .

وفي حجه ﷺ بدا التيسير منه ﷺ في نسكه من أوله إلى آخره، ومن ذلك :

١ – حجه ﷺ حج على رحل رث وقطيفة لا تكاد تساوي أربعة دراهم(٢).

٢ – ويروي لنا ابن عباس مشهداً رائعاً ظهر فيه تيسيره ﷺ بأمته ، وذلك أن رجلاً قال للنبي ﷺ : زرت قبل أن أرمي . قال : « لا حرج » ، قال : حلقت قبل أن أذبح ، قال : « لا حرج »، قال :

---

(١) رواه أحمد (٢٤٨٥٥ ، ٢٥٩٦٢) عن عائشة ، وقال محققو المسند : حديث قوي وهذا سند حسن .

(٢) رواه ابن ماجه في الحج (٢٨٩٠) عن أنس ، ورواه عبد الرزاق في مصنفه (٥ / ١٩) . وذكره الألباني في صحيح ابن ماجه رقم (٢٣٣٧) .

ذبحت قبل أن أرمي . قال : « لا حرج » ، وفي رواية قال : رميت بعدما أمسيت . فقال : « لا حرج » ، قال : حلقت قبل أن أنحر . قال : « لا حرج » ، وفي رواية أخرى ما سئل يومئذ عن شيء إلا قال : « افعل ولا حرج »(١) .

وإذا كان هناك من يقول بأن مخالفة الترتيب في يوم النحر مخالف للسنة ، فإن ابن حزم قال : ما أخطأوا السنة ولا خالفوها ، لأن ما أباحه رسول الله ﷺ ولم ير فيه حرج فهو سنة لكن تركوا الأفضل فقط (٢) .

٣ – ومن تيسيره ﷺ أنه لم يجعل الحلق واجباً على أمته ؛ لكنه جعل الحلق أو التقصير ؛ ولذا لما دعا وقال : اللهم اغفر للمحلقين . قالوا يا رسول الله وللمقصرين ، قال : اللهم اغفر للمحلقين ، قالوا : يا رسول الله وللمقصرين . قال : اللهم اغفر للمحلقين . قالوا : يا رسول الله وللمقصرين ، قال وللمقصرين(٣) .

٤ – ومن تيسيره على أمته قصره الصلاة الرباعية في منى فصلى الظهر اثنتين والعصر اثنتين والعشاء اثنتين وفي حديث ابن عمر : صلى رسول الله ﷺ بمنى ركعتين(٤) .

٥ – وكذلك جمعه بين الظهر والعصر جمع تقديم مع القصر ليتفرغ للدعاء .

---

(١) سبق تخريجه .
(٢) المحلي / ابن حزم / ج٧ / ص ٢٦٢ .
(٣) رواه البخاري في الحج رقم (١٧٢٨) عن أبي هريرة .
(٤) رواه البخاري في الحج رقم (١٦٥٥) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٦٩٤) عن عبد الله بن عمر .

٦ – ولعل من يسره بأمته ﷺ جمعه بين المغرب والعشاء بمزدلفة دون أن يتنفل، واضطجاعه حتى الفجر ، وفي حديث جابر : أن النبي ﷺ أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ، ولم يسبح بينهما شيئاً ، ثم اضطجع حتى طلع الفجر(١).

أين هذا اليسر ممن يشددون على أنفسهم وعلى خلق الله؛ حاملين الناس دائماً على الأشد ، وإن كان فيه كلفة بالناس ، وإن الفقه كل الفقه لهو التيسير على خلق الله ، ولكن وفق منهج رسول الله ﷺ .

١٠- المصطفى ﷺ متواضعاً لرعيته :

ضرب النبي ﷺ في حياته كلها أروع الأمثلة للتواضع ، وقد دلت سنته ﷺ القولية والفعلية على حقيقة هذا الخلق وفضله ، ومن كلامه ﷺ : « وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله »(٢) . ويقول ﷺ : « إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد »(٣).

وقد كان النبي ﷺ يخالط أصحابه كأنه واحد منهم حتى يدخل الداخل عليهم فلا يعرفه فربما قال : « أيكم محمد؟ » كما في حديث ضمام بن ثعلبة (٤).

ومن بديع كلام أبي يوسف رحمه الله : يا قوم أريدوا بعلمكم

---

(١) رواه مسلم في الحج (١٢١٨) عن جابر .
(٢) رواه مسلم في البر والصلة رقم (٢٥٨٨) عن أبي هريرة.
(٣) رواه مسلم في الجنة ونعيمها رقم (٢٨٦٥) عن عياض بن حمار.
(٤) رواه البخاري في العلم (٦٣) عن أنس.

الله ، فإني لم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلوهم ، ولم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى أفتضح .

وقد أحسن الشاعر حين قال :

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تكن كالدخان يعلو بنفسه على طبقات الجو وهو وضيع

يقول ابن عطاء الله موضحاً حقيقة التواضع : ليس المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه فوق ما صنع ؛ ولكن المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه دون ما صنع (١) .

أما تواضعه ﷺ في حجه فحدث ولا حرج ، ومن ذلك :

١- انظر رحمك الله إلى ثوبه الذي أحرم فيه (قطيفة لا تساوي دراهم)(٢) .

٢- وانظر إلى رحله لتراه كما يقول واصفه : (رحل رث)(٣) .

٣- ولا يتفرد ﷺ بدابته بل يردف خلفه ابن عمه الفضل تارة، والحب ابن الحب أسامة بن زيد تارة أخرى .

٤- ولم تكن له ﷺ غير هذه الراحلة عليها يركب ويتنقل ، وعليها طعامه وشرابه ، قال أنس : حج رسول الله على رحل وكانت زاملته(٤) .

---

(١) انظر : الحكم العطائية والمناجاة الإلهية / ص ٥٤ .
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) رواه البخاري في الحج رقم (١٥١٧) عن أنس.

٥ – وما أعظمه حين طلب الماء من العباس عمه : فقال العباس: لابنه الفضل يا فضل : اذهب إلى أمك فأت رسول الله بشراب من عندها – وقد أراد العباس أن يخص النبي ﷺ بشراب – فقال النبي ﷺ : « اسقني » . فقال العباس: يا رسول الله إنهم يجعلون أيديهم فيه ، قال : « اسقني »، فشرب منه (١) . وفي رواية عند أحمد في المسند : « لا حاجة لي فيه ، اسقني مما يشرب منه الناس » .

٦– وانظر إلى مشهد حلقه ﷺ لترى فيه التواضع : كما عند أحمد : عن معمر بن عبد الله قال : فلما نحر رسول الله ﷺ هديه بمنى ؛ أمرني أن أحلقه ، قال : فأخذت الموسى ؛ فقمت على رأسه ، قال : فنظر رسول الله ﷺ في وجهي فقال لي : « يا معمر أمكنك رسول الله ﷺ من شحمة أذنه وفي يدك الموسى ؟ فقلت : والله يا رسول الله إن ذلك لمن نعمه علي ومنته » .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ رمى جمرة العقبة . ثم انصرف إلى البدن فنحرها . والحجام جالس . وقال بيده عن رأسه فحلق شقه الأيمن فقسمه فيمن يليه . ثم قال : « احلق الشق الآخر" فقال : « أين أبو طلحة ؟ » فأعطاه إياه »(٢) .

أين هذا التواضع ممن ألفوا الكبر حتى في بيت الله وبين يدي رب العالمين ، فترى بعضهم يختال في مشيته ، ويتعالى في نظرته، يريد أن يشار إليه .

انظر إلى جبلة بن الأيهم الذي وفد من دمشق مسلما على

(١) رواه البخاري في الحج رقم (١٦٣٥) عن ابن عباس .
(٢) رواه مسلم في الحج (١٣٠٥) عن أنس.

عمر رضي الله عنه في خلافته بخمس مائة فارس عليهم الديباج والذهب ، وعلى رأسه التاج وقرطا مارية المشهوران ، ثم وطئ الفزاري إزاره في الطواف فلطمه ؛ فقال له عمر رضي الله عنه : إما أن ترضه أو تقيده [1]؛ فلم يرض الفزاري إلا أن يقيده بلطمة مثلها ، فقال : أتقيده مني وأنا ملك! فقال عمر رضي الله عنه : أنتما في حكم الإسلام سواء ، فقال : أمهلني ثلاثة أيام . فأمهله ، فخرج ليلا إلى قيصر فملّكه في بلاده وتنصر ، ثم إن عمر رضي الله عنه أرسل صحابياً إلى قيصر فاجتمع بجبلة ؛ فرأى عنده من الخدم والحشم والجواهر وأواني الذهب والفضة ما أذهله، فسأل عن عمر وعن تلك الديار ثم تأوه وأنشد :

تنصرت الأشراف من أجل لطمة ... وما كان فيها لو صبرت لها ضرر
تكنفني فيها لجاج ونخوة ... وبعت بها العين الصحيحة بالعور
فيا ليت أمي لم تلدني وليتني ... رجعت إلى القول الذي قاله عمر
ويا ليتني أرعى المخاض بقفرة ... وكنت أسيراً في ربيعة أو مضر

ثم قال جبلة للرسول : إن ضمنت لي على عمر ثلاثة أشياء رجعت إلى الإسلام :

- أن يغفر لي ما سلف .
- وأن يزوجني بنته .
- وأن يجعلني ولي عهده من بعده .

فقال له : أما الثنتان فنعم وأما الثالثة فلا ، فرجع الرسول وأخبر عمر رضي الله عنه فقال له : ليتك ضمنت الثالثة والله يؤتي ملكه من يشاء.

---

(١) القَوَدُ بفتحتين القصاص و أقاد القاتل بالقتيل قتله به .

فقارن أخي الحبيب بين الحالين ؛ بين من أراد أن يكون واحداً من الناس ، وبين من يريد أن يكون فوق رقاب الناس ، واختر لنفسك أي القدوتين وأي الهديين .

١١ - المصطفى ﷺ محبباً في ربه :

الناس في دعوتهم إلى الله تعالى أنواع : منهم من يحبب الله في خلقه ، ومنهم من يقنط الخلق من الله ، منهم من يخوف الناس من الهلكة ؛ فربما أفزعهم وآيسهم ، ومنهم من يرجّي الناس في رحمة الله تعالى ، منهم من يجعل الله في نظر خلقه بأنه منتقم جبار ، سريع العقاب شديد العذاب ، ومنهم من يجعل الله عند خلقه تواب رحيم وودود لطيف ، منهم من يأخذ بسوط الترهيب ، ومنهم من يأخذ بكف الترغيب .

والخير أن يجمع الداعية بين الأمرين ، وقد كان من كلام الصديق رضي الله عنه لعمر رضي الله عنه : ألم تر أن الله أنزل الرغبة والرهبة ، لكي يرغّب المؤمن فيعمل ، ويرهّب فلا يلقي بيده إلى التهلكة ، وهذا ما قاله ابن عطاء الله في حكمه حين قال : لا يخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج ، أو قلق مشوق (١) .

وقد أحسن ربيب بيت النبوة علي رضي الله عنه حين وصف العالم كل العالم بقوله : من لم يؤيس عباد الله من روح الله ، ولم يؤمنهم مكر الله .

وهذا هو أسلوب القرآن أن يجمع بين الترغيب والترهيب ،

---

(١) انظر : الحكم العطائية والمناجاة الإلهية / ص ٤٨ .

ويقدم الترغيب على الترهيب قال تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ ﴾ [الحجر: ٤٩] وفي الحديث القدسي « رحمتي سبقت غضبي »(١).

وهذا هو هدي النبي ﷺ يُرغب قبل أن يُرهب ، وهو في هذا إنما يريد أن يحبب الخلق في الخالق ، ويقرب العبد من المعبود ، ويطمع المسلم في رحمة ربه ، ويرجّيه في جنته .

وجاء في الأثر : عن زيد بن أسلم : أن رجلا كان في الأمم مجتهداً في العبادة ويشدد على نفسه ويقنط الناس من رحمة الله تعالى ثم مات ، فقال : أي رب مالي عندك ؟ قال النار . قال : أي رب فأين عبادتي واجتهادي ؟ قال : فيقول : إنك كنت تقنط الناس من رحمتي في الدنيا فأنا أقنطك اليوم من رحمتي .

وفي الأثر القدسي : « أن أحب عبادي إلي من حببني إلي عبادي ، وأخبرهم بسعة رحمتي ، وأن أبغض عبادي إلي من قنط عبادي وآيسهم من رحمتي » .

ولقد كان النبي ﷺ في حجه محبباً خلق الله إلى الله ، مرغباً إياهم في ثواب الله ، ولعل جو الحج مناسب لتغليب جانب الترغيب على الترهيب، والرجاء على الخوف ، والرغبة على الرهبة .

وتأمل هذه الأحاديث لترى كيف كان النبي ﷺ يحبب الناس في ربهم بإبراز الأجر والمثوبة ، سواء كانت المثوبة :

---

(١) رواه البخاري في التوحيد رقم (٧٥٥٤) عن أبي هريرة.

أخروية : مثل قوله ﷺ : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة »(١).

مادية : مثل نفي الفقر : فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب؛ كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة ،، وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة »(٢).

اجتماعية : مثل ما جاء في حديث جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة ، قالوا : وما الحج المبرور يا رسول الله ؟ قال : إطعام الطعام وإفشاء السلام » . وفي رواية « وطيب الكلام »(٣).

أخلاقية : مثل قوله : « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه »(٤).

ومع هذا الترغيب لم يغفل ﷺ جانب الترهيب ليوازي الأمران، وتتساوى الكفتان ؛ لكن ترهيبه ﷺ لم يكن ليقنط الناس من رحمة الله ، أو ييئسهم من روح الله ؛ إنما هو ترهيب دافع للعمل، طارد للكسل ، موقظ للهمم ، باعث للعزائم .

ومن ترهيبه ﷺ في الحج :

قوله ﷺ : « من أراد أن يحج فليعجل ، فإنه قد يمرض المريض وتضل الراحلة وتكون الحاجة »(٥).

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) سبق تخريجه.
(٥) سبق تخريجه.

وقوله ﷺ : « تعجلوا الحج فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له »(١).

١٢ ـ المصطفى ﷺ عمله يطابق قوله :

من بديع كلام الفاروق رحمه الله : إن لله رجالاً أحيوا الحق بذكره ، وأماتوا الباطل بهجره ؛ وهذا الصنف من الناس إنما يطابق عملهم قولهم ، وأنبياء الله تعالى كانوا في ذروة هذا الأمر ، ودين الله إنما يحتاج إلى هذه النوعية من الدعاة ، يمزجون القول بالعمل ، والحلم بالعمل ,أما إذا خالف العمل قول صاحبه ، فهذا هو التهتك الذي قسم ظهر علي بن أبي طالب حين قال : « قسم ظهري رجلان : عالم متهتك وجاهل متنسك ». وقد أحسن أبو العتاهية حين قال :

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنا ... كيما يصحَّ به وأنت سقيم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل إن وعظت ويقتدى ... بالرأي منك وينفع التعليم

ورحم الله سيد قطب يوم أن قال : إن الكلمة لتنبعث ميتة ، وتصل هامدة مهما تكن طنانة رنانة متحمسة إذا هي لم تنبعث من قلب يؤمن بها ، ولن يؤمن إنسان بما يقوله حقاً إلا أن يستحيل هو ترجمة حية لما يقول ، وتجسيماً واقعياً لما ينطق ، عندئذ يؤمن الناس ، ويثق الناس ، ولو لم يكن في تلك الكلمة طنين ولا بريق ، إنها حينئذ تستمد قوتها من واقعها لا من زينتها ، وتستمد جمالها من صدقها

(١) سبق تخريجه.

لا من بريقها ، إنها حينئذ تستحيل دفعة حياة لأنها منبثقة من حياة[١].

ولقد كان رسول الله ﷺ طيلة حياته صادق المظهر والجوهر ، يطابق فعله قوله ، كما يطابق ظاهره باطنه .

وفي حجه ﷺ تجلى هذا الأمر جيداً ، وما كان ﷺ ليأمر الناس بشيء ولا يأتيه، أو ينهاهم عن شيء ويأتيه .

انظر إليه ﷺ وهو يقول : « فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله »[٢] . فإذا كان هذا قوله ﷺ فإن فعله كان سابقاً لقوله ، حيث خرج بأهله وأحسن إليهن أفضل الإحسان ، فلما اشتكت أم سلمة قال لها : « طوفي من وراء الناس وأنت راكبة »[٣].

ولما حاضت عائشة قال لها ﷺ مطيباً خاطرها : « فلا يضرك أنت من بنات آدم، كتب الله عليك ما كتب عليهن ، فكوني في حجك عسى الله أن يرزقكها »[٤] وفي رواية « ما يبكيك يا هنتاه؟ »[٥].

فكان ﷺ قوله مطابق لفعله مع أهله .

وانظر إليه وهو يعلن على الملأ من الناس حرمة قتل النفس

---

(١) انظر : في ظلال القرآن / ج١ / ص ٦٨ .
(٢) رواه مسلم في الحج رقم (١٢١٨) عن جابر.
(٣) رواه البخاري في التفسير رقم (٤٨٥٣) ، ومسلم في الحج رقم (١٢٧٦) عن أم سلمة.
(٤) رواه البخاري في الحج رقم (١٥٦٠) عن عائشة.
(٥) سبق تخريجه.

وحرمة الربا ، فيبدأ ﷺ بأقرب الناس إليه ليقتدى به ، فبدأ بدم ابن ربيعة بن الحارث ، وبربا عمه العباس ، فقال : « ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث ـ وكان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل ـ وربا الجاهلية موضوع ؛ وأول ربا أضع ربانا ؛ ربا عباس بن عبد المطلب »(١) .

ولما دعا ﷺ للمحلقين ثلاثاً كان ﷺ محلقاً ولم يكن مقصراً .

وحين أمر الناس بالسكينة عند الدفع من عرفة كان ﷺ أكثر القوم سكينة ، وأشدهم تذللاً ، وأحسنهم خشية ، وأدناهم من الله قرباً .

ولله در سيد قطب رحمه الله حين قال :

إن آفة رجال الدين – حين يصبح الدين حرفة وصناعة لا عقيدة حارة دافعة – أنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ؛ يأمرون بالخير ولا يفعلونه ؛ ويدعون إلى البر ويهملونه ؛ ويحرفون الكلم عن مواضعه ؛ ويؤولون النصوص القاطعة خدمة للغرض والهوى ، ويجدون فتاوى وتأويلات قد تتفق في ظاهرها مع ظاهر النصوص ، ولكنها تختلف في حقيقتها عن حقيقة الدين ، لتبرير أغراض وأهواء لمن يملكون المال أو السلطان ! كما كان يفعل أحبار يهود !

والدعوة إلى البر والمخالفة عنه في سلوك الداعين إليه ، هي الآفة التي تصيب النفوس بالشك لا في الدعاة وحدهم ولكن في الدعوات ذاتها . وهي التي تبلبل قلوب الناس وأفكارهم ، لأنهم يسمعون قولا جميلا ، ويشهدون فعلا قبيحا ؛ فتتملكهم الحيرة بين القول والفعل ؛

(١) رواه مسلم في الحج رقم (١٢١٨) عن جابر .

وتخبو في أرواحهم الشعلة التي توقدها العقيدة ؛ وينطفئ في قلوبهم النور الذي يشع الإيمان ؛ ولا يعودون يثقون في الدين بعد ما فقدوا ثقتهم برجال الدين (١).

١٣ - المصطفى ﷺ مبلغاً رسالة ربه :

البلاغ عن الله تعالى أمر واجب على كل رسول من رسل الله تعالى ؛ ونبي الله محمد ﷺ كان أكثر إخوانه جهداً في هذا الأمر ؛ وهذا نابع من عالمية رسالته ، وهيمنة شريعته ، ومن يوم أن نزل قول الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ** ﴾ [المدثر: ١، ٢] ؛ والنبي ﷺ يبلغ رسالة ربه ، ولما نزل قوله تعالى : ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** ﴾ [الشعراء: ٢١٤] ؛ لم يلبث رسول الله ﷺ أن صعد الجبل ؛ وصرخ في الناس يا بني فهر ، يا بني عدي ـ لبطون قريش ـ حتى اجتمعوا فجعل الذي لم يستطع أن يخرج يرسل رسولاً لينظر : ما هو؟ فجاء أبو لهب وقريش، فقال النبي ﷺ : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذباً. قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد(٢).

وجاء القرآن ليؤكد للنبي ﷺ أمر التبليغ ، بل شدد القرآن في لهجة الخطاب للنبي ﷺ وهو يقول له: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** ﴾ [المائدة: ٦٧].

يقول الشهيد سيد قطب : إنه الأمر الجازم الحاسم للرسول ﷺ

---

(١) في ظلال القرآن - ج١ - ص ٦٨ .

(٢) رواه البخاري في التفسير رقم (٤٧٧٠) ، ومسلم في الإيمان رقم (٢٠٨) عن ابن عباس.

أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه وإلا فما بلغ وما أدى وما قام بواجب الرسالة[١] . ولم يترك النبي ﷺ وسيلة من وسائل التبليغ إلا وسخرها للبلاغ عن ربه .

وفي حجه ﷺ كان حريصاً كل الحرص على هذا البلاغ ويظهر ذلك من قول جابر : « ثم أذن رسول الله ﷺ في الناس في العاشرة – أي السنة العاشرة – أن رسول الله ﷺ حاج ؛ فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله[٢] .

وهذا هو مقصود رسول الله ﷺ أن يأتم به الناس ، ولهذا صرخ في الناس قائلاً : « لتأخذوا عني مناسككم »[٣] .

وللفت انتباههم كما عند الطبراني في الأوسط قال لهم ﷺ : « لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا » .

ومن أجل هذا تعددت خطبه ﷺ وقد ذكرنا سابقاً أنه ﷺ قد خطب أربع خطب في حجه وهي :

الخطبة الأولى : يوم السابع من ذي الحجة عند الكعبة بعد صلاة الظهر .

الخطبة الثانية : يوم التاسع من ذي الحجة « يوم عرفة » قبل صلاة الظهر والعصر .

الخطبة الثالثة : يوم العاشر من ذي الحجة وهو « يوم النحر » .

الخطبة الرابعة : يوم الثاني عشر من ذي الحجة وهو « يوم النفر الأول » .

---

(١) انظر : في ظلال القرآن – ج٢ – ص ٩٣٨ .
(٢) رواه مسلم في الحج رقم (١٢١٨) عن جابر .
(٣) سبق تخريجه .

كما تعددت رسله وتعدد المبلغون عنه كعلي وبلال وربيعة بن أمية رضي الله عنهم (١).

ولحرصه ﷺ على البلاغ كان يستنطق الناس تبليغه رسالة ربه ، ويحمل الشاهد منهم الرسالة لتصل إلى الغائب ، فيقول ﷺ : « وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون ؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ،، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس، اللهم اشهد ، اللهم فاشهد ثلاث مرات »(٢).

إنه ﷺ كما يقول الغزالي رحمه الله : كان يستنصت الجماهير المائجة ليؤكد المعاني التي بعث بها ,والتي عرفهم عليها ، ويخلي ذمته من عهدة البلاغ والتبيان التي نيطت بعنقه(٣).

وينبغي هنا أن نؤكد بأن حجة النبي ﷺ أطلق عليها (حجة البلاغ) .

لقد أراد النبي ﷺ ذلك بعد أن وصل أصحابه إلى درجة الرشد، ومرحلة النضوج، الذي يصلون فيه إلى تحمل الرسالة ، فكان حرياً به ﷺ أن يجمع هذا الجمع الذي لم يلبث أن انتشر في الأرض مبلغاً رسالة محمد ﷺ ولسان حاله يقول :

أنا مصحف يمشي وإسلام يرى ... أنا نفحة علوية فوق الثرى
الكون لي ولخدمتي قد سخرا ... ولمن أنا ؟ أنا للذي خلق الورى(٤)

---

(١) انظر : ما ذكرته تحت عنوان «المصطفى ﷺ معلماً لأمته» .
(٢) رواه مسلم في الحج رقم (١٢١٨) عن جابر.
(٣) انظر : فقه السيرة / الغزالي / ص ٦٨٥ .
(٤) انظر: نفحات ولفحات / القرضاوي / ص ١١٨ .

١٤ ـ المصطفى ﷺ ينزل الناس منازلهم :

ظل النبي ﷺ طيلة حياته ، ينزل كل امرئ في منزلته ، ويجعل لكل ذي قدر قدراً، وكلماته ﷺ دالة على ذلك ، ومن ذلك: « أنزلوا الناس منازلهم »(١) .

وحذر النبي ﷺ من إنقاص الناس قدرهم فقال: « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويعرف شرف كبيرنا »(٢) .

وجعل النبي ﷺ إنزال الناس منازلهم من تعظيم الله جل وعلا فقال :« إن من إجلال الله تعالى : إكرام ذي الشيبة المسلم ، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه(٣) ، وإكرام ذي السلطان المقسط(٤) »(٥) .

ورغب ﷺ في إكرام ذي المنزلة فقال : « ما أكرم شاب شيخاً لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند كبر سنه »(٦) .

وقد كان ﷺ يعامل الناس بهذا الخلق ، فإن تقدم أحدهم على من هو أكبر منه رده النبي إلى صوابه كما فعل مع عبد الرحمن بن

---

(١) رواه أبو داود في الأدب (٤٨٤٢) . وذكره الألباني في ضعيف أبي داود رقم (١٠٣٢) .

(٢) رواه الترمذي في البر والصلة (١٩٨٥) . وذكره الألباني في صحيح الترغيب رقم (١٠٣) .

(٣) أي التالي له العامل بما فيه .

(٤) أي العادل .

(٥) رواه أبو داود في الأدب (٤٨٤٦٣) . وذكره الألباني في صحيح أبي داود رقم (٤٠٥٣) .

(٦) رواه الترمذي في البر والصلة (٢٠٩١) عن أنس، وذكره الألباني في ضعيف الترغيب رقم (٣٤٨) .

سهل الذي أراد أن يتكلم ومعه من هو أكبر منه فقال النبي ﷺ « كبر كبر »(١).

وفي حجه ﷺ عرف منه هذا الخلق ، ويظهر ذلك في وقت حلقه ؛ حيث أشار ﷺ على حالقه أن يفرق نصف شعره على الناس ، وخص أبا أيوب الأنصاري بالنصف الباقي ؛ عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن رسول الله رمى جمرة العقبة ثم انصرف إلى البدن فنحرها والحلاق جالس فأومأ إلى رأسه فقال : احلق فحلق شقه الأيمن فقسمه فيمن يليه : ثم قال : احلق الشق الآخر فحلقه . فقال : أين أبو طلحة ؟ فناوله إياه »(٢).

ومن ذلك أيضاً إردافه ﷺ أسامة بن زيد ، فإنه ولئن كان ﷺ قد أردف الفضل ابن عمه العباس ؛ فإن إردافه لأسامة رضي الله عنه إنما هو إكرام له فضلاً عن كونه إكراماً لأبيه زيد بن حارثة رضي الله عنه .

ومن ذلك أيضاً إعطاء الأنصار والمهاجرين منزلة خاصة في منى حيث جعل لكل منهما مكاناً معلوماً لا ينزل فيه غيرهم حيث قال ﷺ » لينزل المهاجرون هاهنا ، وأشار إلى ميمنة القبلة ، والأنصار هاهنا ، وأشار إلى ميسرة القبلة »(٣).

١٥ - المصطفى ﷺ معلناً لحقوق الإنسان :

من المصطلحات الطنانة، والكلمات الرنانة، مصطلح (حقوق

---

(١) رواه البخاري في الأحكام (٧١٩٢) عن عبد الله بن سهل .
(٢) رواه مسلم في الحج (١٣٠٥) عن أنس.
(٣) رواه أبو داود في الحج (١٩٥١)، وذكره الألباني في صحيح أبي داود رقم (١٧١٩) .

الإنسان) وغدا له يوم تحتفل به ما تدعى بـ (الأمم المتحدة) ومن عجائب هذا الزمن أن من يعيش في ضوء شمعة يروج لها ، وأن من يعيش في ضوء الشمس لا يعبأ بها ، والأمر كما يقول الغزالي رحمه الله : أن الإسلام قضية ناجحة لكنها وقعت في أيدي محامين فشلة .

نعم وقعت قضية الإسلام الناجحة في أيدي من لا يحسنون عرضها ولا الدفاع عنها، بل شوهوا صورتها ، وأخفوا أدلتها ، وأعانوا خصمها عليها ، وكبلوها بعجزهم ، وأخشى أن يحكموا عليها بالإعدام إن ماتت قلوبهم ، وطمست بصائرهم .

وقبل أن ننوه على أول ميثاق من حقوق الإنسان على مر التاريخ ينبغي أن نعرف التطور التاريخي لحقوق الإنسان . يقول الدكتور منير البياتي : يمثل معظم تاريخ حقوق الإنسان حالة مظلمة من الذل ، والهوان ، وانعدام حقوق الإنسان ، ففي الحضارات القديمة في مصر ، وفارس ، والهند ، والصين ، وبابل ، وروما ، وغيرها ، كان الحاكم يعد من طبيعة إلهية ، وكان الناس عبيداً له ، وليس لهم في مواجهته أية حقوق أو حريات فكانت سلطته مطلقة يفعل بهم ما يشاء فهو لم يكن مفوضاً من قبل الإله نفسه بزعمهم .

في مثل هذا الجو لا كلام عن حقوق الإنسان وهي حقبة طويلة مظلمة في تاريخ الإنسان .

ولما أشرق نور الإسلام في القرن السابع الميلادي وأطاح فيما بعد بالإمبراطورية الفارسية وأضاءها بنوره ، وانتزع من الإمبراطورية الرومانية شعوباً كثيرة أضاءها بنوره أيضاً ، ولم يكتب لأوربا أن

تستظل بنور الإسلام ، فبقيت تنتقل من ظلام إلى ظلام لا تعرف شيئاً اسمه حقوق الإنسان (١).

نعم لقد كان محمد بن عبد الله ﷺ في حجته أول من أعلن حقوق الإنسان على مر التاريخ ، وكان هو أول واضع لميثاق حقوق الإنسان ، واسمع إلى خطبته الجامعة التي ألقاها على رؤوس الأشهاد وهو في الشهر الحرام وبالبلد الحرام كما في مسند أحمد : « أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر، إلا بالتقوى . أبلغت؟ قالوا : بلغ رسول الله ﷺ »(٢).

وفي الصحيحين : « إن أموالكم ودماءكم وأعراضكم عليكم حرام ؛ كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا »(٣).

وفي رواية عن عبادة بن عبد الله بن الزبير قال : كان ربيعة بن أمية بن خلف الجمحي – وهو الذي كان يصرخ يوم عرفة – تحت ناقة رسول الله ﷺ وقال له رسول الله ﷺ : أصرخ – وكان صيتا – أيها الناس أتدرون أي شهر هذا ؟ فصرخ . فقالوا : نعم الشهر الحرام . قال: فإن الله عز وجل قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا

---

(١) انظر : حقوق الإنسان بين الشريعة والقانون – د : منير حميد البياتي – كتاب الأمة – طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بقطر – ط الأولى –عدد ٨٨ – ربيع الأول ١٤٢٣ هـ – ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) رواه أحمد في المسند (٢٣٤٨٩) عن رجل من أصحاب النبي ﷺ ، وقال محققو المسند : إسناده صحيح ، وذكره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٩٦٤) .

(٣) رواه البخاري في العلم (٦٧) ، ومسلم في القسامة (١٦٧٩) عن أبي بكرة .

ربكم كحرمة شهركم هذا . ثم قال : اصرخ هل تدرون أي بلد هذا؟ فصرخ . فقالوا : البلد الحرام . قال : فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى يوم تلقونه كحرمة بلدكم هذا . ثم قال : اصرخ أي يوم هذا؟ فصرخ . فقالوا : هذا يوم حرام . قال : فإن الله عز وجل قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى يوم تلقونه كحرمة يومكم هذا»[1].

إن أهم بنود هذا الميثاق الذي تضمنته حجة الوداع ما يلي :

١ – الرب واحد .

٢ – الأب واحد .

٣ – الناس متساوون .

٤ – الدماء مصونة .

٥ – الأموال مصونة .

٦ – الأعراض مصونة .

هذه هي حقوق الإنسان التي لم تسمع عنها أوربا إلا في عصرنا هذا ، ولكن محمداً ﷺ أرسى قواعدها ، ورسخ مبادئها ، وأعلى دعائمها ، وأخرجها من ميدان الكلام إلى ميدان العمل ، ومن حيز القول إلى حيز التطبيق ، حتى عاش أصحابه من بعده بهذه الحقوق ، وهل رأيت كلمة في حقوق الإنسان أروع من كلمة الفاروق يوم أن قال لفاتح مصر عمرو بن العاص : متى استعبدتم الناس يا عمرو وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً .

نعم لقد وعى تلاميذ محمد بن عبد الله ﷺ الدرس جيداً منذ

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٥ / ٦٧) ، وقال الحافظ الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني في الكبير مرسلاً – كما تراه– ورجاله ثقات (١ / ٢٧٠) .

أن غضب النبي ﷺ في وجه أبي ذر ؛ وقال له حين قال لبلال : « يا ابن السوداء » فقال ﷺ : « أعيرته بأمه؛ إنك امرؤ فيك جاهلية »(١) .

لكن أين الآن دعاة حقوق الإنسان ؟ أين هم ؟ وأين ميثاقهم ؟

لقد ضاعت هذه الحقوق تحت أقدام أصحاب الفيتو .

نعم لقد ضاعت حقوق الإنسان تحت طاغوت الهيمنة للدول الكبرى .

أين هذه الحقوق لملايين البشر في شتى دول العالم ، ممن يعيشون تحت خط الفقر بآلاف الأميال ؟

أين هذه الحقوق للملايين التي لا تجد ما تلتحف به من برد الشتاء ، ولا حر الصيف ؟

أين هذه الحقوق للدول التي تباع وتشترى ؟

أين هذه الحقوق في البوسنة ؟

أين هذه الحقوق في الشيشان ؟

أين هذه الحقوق في أفغانستان ؟

أين هذه الحقوق في كشمير ؟

أين هذه الحقوق في العراق ؟

أين هذه الحقوق في اريتريا ؟

أين هذه الحقوق في فلسطين ؟

ولقد كان محقاً عبد السلام البسيوني حين قال : إننا نعيش

(١) رواه ابن المبارك . وقال الألباني في غاية المرام صحيح رقم (٣٠٧) .

obeikandl.com

يا سيدي في زمن شعاره (إذا لم تكن ذئباً مزقتك الذئاب) زمن الحصار الجوي والبري والبحري على الشعوب حتى تركع وتحني الرقبة، زمن شعب أبي طالب في الجاهلية المعاصرة ضد العراق وليبيا، ونيجيريا ، وأفغانستان ، والسودان ، وسائر العالم الإسلامي « الكسير » .

نحن في عالم لا مكان فيه يا سيدي للشعراء والعصافير ، والفل والياسمين إلا في الأفلام والأحلام ....

أبونا آدم خلق من تراب يا سيدي أعلم .. نعلم .. كل الدنيا تعلم : كلنا من أصل واحد ، لكن فينا من يزعمون أن الله عجن طينتهم بالمسك والبنكنوت والنور .. وأن غيرهم معجون بالقطران والوحل وماء البرك ، رغم أن القوانين تسوي ، والشريعة تسوي ، والعقل يسوي ، والشعارات تسوي ... لكنها تبقى في النهاية شعارات [1] .

١٦ - المصطفى ﷺ منظماً في هديه :

لم يعرف التاريخ شريعة تنظم الناس في كل شعائرها كما هو الحال في شريعة الإسلام ، ويستطيع كل امرئ أن يدرك ذلك جلياً واضحاً في شعائر الإسلام الكبرى من صلاة وصيام وزكاة وحج .

لكن قبل إلقاء هذه النظرة المتأنية في سيرة النبي ﷺ ينبغي أن نضع في الحسبان أن رسول الله ﷺ بعث في أمة مما وصفت به أنها أمة جاهلية ، فلا حضارة ولا تقدم ؛ بل هو التسرع والهمجية .

---

(١) انظر : مقالة الشيخ عبد السلام البسيوني بعنوان « قراءة دامعة في خطبة الوداع ».

و كان زمن البعثة كما يصفه الشيخ أبو الحسن الندوي رحمه الله : بعث محمد بن عبد الله ﷺ والعالم بناء أصيب بزلزال عظيم شديد هزه هزاً عنيفاً ؛ فإذا كل شيء في غير محله ، فمن أساسه ومتاعه ما انكسر ، ومنه ما التوى وانعطف ، ومنه ما فارق محله اللائق به وشغل مكاناً آخر ، ومنه ما تكدس وتكوم .

نظر ﷺ إلى العالم بعين الأنبياء ؛ فرأى إنساناً قد هانت عليه آدميته ، رآه يسجد للحجر والشجر والنهر ، وكل ما لا يملك لنفسه النفع والضرر .

رأى إنساناً معكوساً قد فسدت عقليته ؛ فلم تعد تسيغ البديهيات ، ولا تعقل الجليات، وفسد نظام فكره ، فإذا النظري عنده بدهي ، والعكس ؛ يستريب في موضع الجزم ، ويؤمن في موضع الشك ، وفسد ذوقه فصار يستحلي المر ويستمرئ الوخيم ، ويستطيب الخبيث ؛ فأصبح لا يبغض العدو الظالم ولا يحب الصديق الناصح (١) .

ثم بعث رسول الله ﷺ ليعلم الناس النظام فيقول لهم عند صلاتهم : « أقيموا الصفوف ، فإنما تصفون بصفوف الملائكة، وحاذوا بين المناكب ، وسدوا الخلل ولينوا بأيدي إخوانكم ، ولا تذروا فرجات للشيطان ، ومن وصل صفاً وصله الله، ومن قطع صفاً قطعه الله »(٢) .

---

(١) انظر : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - الشيخ : أبو الحسن الندوي - ص٨٩ ، ٩٠ - ط دار القلم - ط الثامنة ١٩٧٠م .

(٢) رواه أحمد (٥٧٢٤) عن ابن عمر ، وقال مخرجو المسند : إسناده صحيح ، رجاله ثقات ، ورواه أبو داود (٦٦٦) ، وذكره الألباني في صحيح أبي داوود رقم (٦٢٠) .

ويشدد النبي ﷺ على النظام في الصلاة فيقول : « أقيموا صفوفكم فإني أراكم من وراء ظهري »(١) .

ويربط النبي ﷺ بين انتظام الصفوف وتآلف القلوب فيقول : « استووا ، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم »(٢) .

ولما رأى رجلاً بادياً صدره من الصف شدد النكير على القوم كلهم فقال : « عباد الله لتسون صفوفكم ؛ أو ليخالفن الله بين وجوهكم »(٣) .

ويعنف النبي ﷺ سابق الإمام ، وينعته بأشد النعوت لأنه أفسد النظام فيقول : « أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار »(٤) .

وفي الحج كذلك تجلى تنظيمه ﷺ لرعيته ، وانتظامه في نسكه ، فإنه ﷺ على كثرة عدد أصحابه الذين أحاطوا به عن يمينه وشماله ومن بين يديه ومن خلفه وكانوا أمام الناظر مد البصر ، لم يذكر التاريخ أن واحداً أظهر تأففه لكثرة العدد ، وكثرة الأتباع ، وأعجب من هذا أن يعمل النبي ﷺ جاهداً ليصل البلاغ إلى كل الناس .

لقد كان النبي ﷺ يعلم الناس نسكاً ما ألفوها بهذا الشكل

---

(١) رواه البخاري في الأذان (٧٢٥) عن أنس.
(٢) رواه مسلم في الصلاة (٤٣٢) عن أبي مسعود.
(٣) رواه البخاري في الأذان (٧١٧) ، ومسلم (٤٣٦) عن النعمان بن بشير.
(٤) رواه البخاري في الأذان (٦٩١) ، ومسلم في الصلاة (٤٢٧) عن أبي هريرة.

الجديد ؛ فإنهم وإن حجوا وزاروا من قبل فعلى دين آبائهم لا على دين إبراهيم ، وعلى ملة أجدادهم لا على ملة الخليل ، وكان دور النبي ﷺ أن يعلم الناس نسكاً بهدم أنساك أخر ، وهذا يحتاج إلى دقة ونظام .

فإن ألفوا في تلبيتهم : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك »؛ فإنه ﷺ يرفض هذه التلبية ويأتي بأخرى لا كفر فيها ولا شرك .

وإن ألفوا الوقوف في المزدلفة ؛ فإنه ينظمهم على أن يقفوا بعرفة .

وإن ألفوا الإفاضة من عرفة قبل الغروب ؛ فإنه ينظمهم على أن يفيضوا بعد الغروب .

وإن ألفوا الخروج من مزدلفة قبل الشروق ؛ فإنه ينظمهم على أن يفيضوا بعد الشروق .

وحين يسأله رجل فيقول : من أين نهل يا رسول الله ؟ فيقول ﷺ : « يهل أهل المدينة من ذي الحليفة ، وأهل الشام من الجحفة، وأهل نجد من قرن ، وأهل اليمن من يلملم »[1] فهذا هو عين النظام، حتى لا تختلط المواقيت المكانية على الناس ، أو تتداخل عليهم الأماكن .

لقد كان الحبيب ﷺ يوصي الناس بالسكينة والهدوء فيقول: « أيها الناس !عليكم بالسكينة ، فإن البر ليس بالإيضاع[2] »[3] .

---

(١) سبق تخريجه . (٢) الإيضاع : أي بالإسراع .
(٣) رواه البخاري في الحج (١٦٧١) عن ابن عباس.

وكان يسير العَنَق ـ أي السير الرفيق ـ فإذا وجد فجوة ـ أي مكاناً متسعاً ـ نص ـ أي أسرع ـ (١)»(٢).

وأمره ﷺ بالسكينة وصية يُستشعر منها مدى اهتمامه ﷺ بالنظام.

وانظر إليه ﷺ وهو يقول لعمر رضي الله عنه فيما رواه الشافعي في سننه: «يا أبا حفص إنك رجل قوي، فلا تزاحم على الركن، فإنك تؤذي الضعيف، ولكن إن وجدت خلوة فاستلم، وإلا فكبر وامض».

انظر **أخي الحبيب**: إنه يريد من عمر رضي الله عنه ألا يزاحم حتى لا يحدث خللاً أو ينشئ فوضى. وتأمل منظر الحجيج، لترى روعة النظام التي أرادها محمد بن عبد الله ﷺ، اتحاد في الزي، ووحدة في الطواف، واتفاق في السعي، كلهم يبيت في منى، ويقفون بعرفة، ويفيضون إلى المزدلفة، حتى إذا كان يوم الحج الأكبر وهو اليوم العاشر من ذي الحجة؛ وكثرت أعماله، وتعددت الأفعال فيه؛ هنا يبيح النبي ﷺ التقديم والتأخير، ويقول لمن سأله عن التقديم والتأخير: «افعل ولا حرج»(٣). وهو بهذا يريد المحافظة على النظام حتى لا يعمد الناس إلى فعل واحد فيزداد ازدحامهم، ويختل نظامهم.

ولهذا لما كان ﷺ في منى؛ نظم الناس وأجلس كل جماعة في موضع؛ كما في حديث عبد الرحمن بن معاذ عن رجل من أصحاب

---

(١) العَنَق: أي السير الرفيق؛ فإذا وجد فجوة: مكاناً متسعاً؛ نص: أسرع.

(٢) رواه البخاري في الجهاد والسير رقم (٢٩٩٩)، ومسلم في الحج (١٢٨٦) عن أسامة بن زيد.

(٣) رواه البخاري في الحج رقم (١٧٢٣) عن ابن عباس.

النبي ﷺ قال : خطب النبي ﷺ الناس بمنى ؛ وأنزلهم منازلهم فقال: لينزل المهاجرون ههنا وأشار إلى ميمنة القبلة ، والأنصار ههنا وأشار إلى ميسرة القبلة ، ثم لينزل الناس حولهم »[١].

تأمل هذا كله ، وانظر إلى الفوضى التي يحدثها الناس في حجهم في عصر ادعى أهله التقدم ، ووصف أهله بالحضارة .

إن أمة الإسلام الآن لا تحسن ركوب « حافلة » أو النزول من أخرى ، فإن ترك الأمر لهم رأيت ما يسوؤك ، وسمعت ما تكره ، وأين هذا من نظام رسول الله ﷺ ؟

١٧ ـ المصطفى ﷺ مقتدياً بإخوانه :

النبي ﷺ سبقه إخوان كثر ، منهم الأنبياء ومنهم المرسلون، وقد جاء ﷺ مصدقاً لما أتوا به ، ومهيمناً عليه ، وهم جميعاً إخوة، قال ﷺ : « الأنبياء إخوة لعلات[٢]، أمهاتهم شتى ودينهم واحد »[٣].

وقد أمر الله عز وجل رسوله ﷺ أن يقتدي بمن سبقه منهم فقال له : ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال سبحانه : ﴿ **ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [النحل: ١٢٠].

والنبع الذي اغترف منه النبي ﷺ هو الذي اغترف منه إخوانه

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الأنبياء أولاد علاَّت : أي أنهم لأُمَّهات مختلفة، ودِينُهم واحد ، والمعنى : أن إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة.

(٣) رواه مسلم في الفضائل رقم (٢٣٦٥) عن أبي هريرة.

السابقون ، والأمر كما قال النجاشي لما سمع كلام جعفر بن أبي طالب : « إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة »(١) .

ولما ادعى اليهود يهودية إبراهيم ، وقالت النصارى بنصرانيته؛ قال الله تعالى لنبيه الكريم : ﴿ **مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾[آل عمران : ٦٧]

ثم خص الله نبيه ﷺ وأمته بإبراهيم عليه السلام فقال : ﴿ **إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ** ﴾

[آل عمران : ٦٨]

وقد ظهر اقتداء النبي ﷺ بإخوانه السابقين في منسك الحج ، وقد أخبر النبي ﷺ أصحابه بصنيع نفر من الأنبياء في حجهم ومن ذلك :

ما روي في حج آدم عليه السلام عن محمد بن كعب القرظي أو غيره قال : حج آدم عليه السلام فلقيته الملائكة قالوا : بر نسكك آدم لقد حججنا قبلك بألفي عام » .

وما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه رفعه إلى النبي ﷺ قال : لما أتى إبراهيم خليل الله صلوات الله عليه وسلامه المناسك ؛ عرض له الشيطان عند جمرة العقبة فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض، ثم عرض له عند الجمرة الثانية فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض ، ثم عرض له عند الجمرة الثالثة فرماه بسبع حصيات حتى

---

(١) انظر : الرحيق المختوم - صفي الرحمن المباركفوري - ط دار الفكر - ط. الأولى عام ١٩٩١م - ص٨٤ .

ساخ في الأرض ؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما : الشيطان ترجمون ، وملة أبيكم إبراهيم تتبعون »[١] .

وقد جاء في وصف حج موسى ويونس ـ عليهما السلام ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سرنا مع رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة ؛ فمررنا بواد فقال : أي واد هذا ؟ فقالوا وادي الأزرق . فقال : كأني أنظر إلى موسى ؛ فذكر من لونه وشعره شيئا لم يحفظه داود واضعاً إصبعيه في اليسرى له جؤار إلى الله بالتلبية ماراً بهذا الوادي ، قال : ثم سرنا حتى أتينا على ثنية فقال : أي ثنية هذه ؟ قالوا : هرشي أو لفت فقال : كأني أنظر إلى يونس على ناقة حمراء عليه جبة صوف ، خطام ناقته ليف خلبة ، مارا بهذا الوادي ملبيا »[٢] .

وأكد النبي ﷺ على اقتدائه بأبيه إبراهيم حين أرسل ابن مِربَع للناس في عرفة ليقول لهم : « كونوا على مشاعركم ، فإنكم على إرث من إرث إبراهيم »[٣] .

ولقد كان عمر رضي الله عنه ملهماً حقاً حين وقف عند المقام وقال للنبي ﷺ : لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ؟ فنزلت الآية »[٤] . لأنه يعرف حب النبي ﷺ في الإقتداء بأبيه إبراهيم عليه السلام .

---

(١) رواه ابن خزيمة في صحيحه (٤ / ٣١٥) والحاكم (١ / ٦٣٨) وقال صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي وقال: على شرط مسلم و البيهقي في الكبرى .وذكره الألباني في صحيح الترغيب (١١٥٦) .

(٢) رواه مسلم في الإيمان رقم (١٦٦) .

(٣) رواه أحمد (١٧٢٣٣) عن ابن مربع الأنصاري، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ، رجاله ثقات، ورواه ابن ماجه(٣٠١١) والترمذي (٨٨٣) وأبو داود (١٩١٩) ، وذكره الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٥٨٦) .

(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج١ - ١٧١ .

إن هذه الأحداث يأتيها النبي ﷺ وهو يقتدي بإخوانه السابقين؛ وهو في اقتدائه تمر عليه هذه الأطياف المباركة . يقول صاحب الظلال عن هذه الأطياف المباركة :

الحج موسم عبادة تصفو فيه الأرواح ، وهي تستشعر قربها من الله في بيته الحرام . وهي ترف حول هذا البيت وتستروح الذكريات التي تحوم عليه وترف كالأطياف من قريب ومن بعيد . .

طيف إبراهيم الخليل عليه السلام وهو يودع البيت فلذة كبده إسماعيل وأمه ، ويتوجه بقلبه الخافق الواجف إلى ربه : ﴿ **رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** ﴾ [إبراهيم: ٣٧] .

وطيف هاجر وهي تستروح الماء لنفسها ولطفلها الرضيع في تلك الحرة الملتهبة حول البيت ، وهي تهرول بين الصفا والمروة وقد نهكها العطش ، وهدها الجهد وأضناها الإشفاق على الطفل . . ثم ترجع في الجولة السابعة وقد حطمها اليأس لتجد النبع يتدفق بين يدي الرضيع الوضيء . وإذا هي زمزم . ينبوع الرحمة في صحراء اليأس والجدب .

وطيف إبراهيم عليه السلام وهو يرى الرؤيا ، فلا يتردد في التضحية بفلذة كبده ، ويمضي في الطاعة المؤمنة إلى ذلك الأفق البعيد : ﴿ **فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى** ﴾ [الصافات: ١٠٢] فتجيبه الطاعة الراضية في

إسماعيل عليه السلام: ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وطيف إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – يرفعان القواعد من البيت ، في إنابة وخشوع : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وتظل هذه الأطياف وتلك الذكريات ترف وتتتابع ، حتى يلوح طيف عبد المطلب، وهو ينذر دم ابنه العاشر إن رزقه الله عشرة أبناء . وإذا هو عبد الله . وإذا عبد المطلب حريصا على الوفاء بالنذر . وإذا قومه من حوله يعرضون عليه فكرة الفداء وإذا هو يدير القداح حول الكعبة ويضاعف الفداء ، والقدح يخرج في كل مرة على عبد الله ، حتى يبلغ الفداء مائة ناقة بعد عشر هي الدية المعروفة . فيقبل منه الفداء ، فينحر مائة وينجو عبد الله . ينجو ليودع رحم آمنة أطهر نطفة وأكرم خلق الله على الله ـ محمد رسول الله ـ ثم يموت ! فكأنما فداه الله من الذبح لهذا القصد الوحيد الكريم الكبير !

ثم تتواكب الأطياف والذكريات . من محمد رسول الله وهو يدرج في طفولته وصباه فوق هذا الثرى ، حول هذا البيت .. وهو يرفع الحجر الأسود بيديه الكريمتين فيضعه موضعه ليطفئ الفتنة التي كادت تنشب بين القبائل .. وهو يصلي .. وهو يطوف .. وهو يعتكف .. وإن خطواته – عليه الصلاة والسلام – لتنبض حية في الخاطر ، وتتمثل شاخصة في الضمير ، يكاد الحاج هناك يلمحها وهو مستغرق في تلك الذكريات.. وخطوات الحشد من صحابته الكرام وأطيافهم ترف وتدف فوق هذا الثرى ، حول ذلك البيت ، تكاد تسمعها الأذن وتكاد تراها الأبصار !(١).

(١) انظر : في ظلال القرآن / ج٤ / ص ٢٤١٩ .

وها هو رسول الله ﷺ يخبر عن حجة ابن مريم في آخر الزمن فيقول أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « ليهبطن عيسى بن مريم حكما عدلا، وإماما مقسطا، وليسلكن فجا، حاجا أو معتمرا، أو بنيتهما، وليأتين قبري حتى يسلم، ولأردن عليه». يقول أبو هريرة: أي بني أخي، إن رأيتموه فقولوا: أبو هريرة يقرئك السلام (١).

١٨ ـ المصطفى ﷺ يحدد المرجعية العليا :

كان النبي ﷺ على يقين من موته، وعلى علم بدنو أجله، وقرب وفاته، ومن ثم فإنه ﷺ كان يعمل جاهداً على تحديد المرجعية العليا لأصحابه في حياته وبعد مماته، وكان القرآن يتنزل على النبي ﷺ ليؤكد هذا الأمر، قال تعالى: ﴿ **فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ** ﴾ [النساء: ٦٥].

وقال: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقال: ﴿ **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ [النساء: ٥٩].

وقد حرص النبي ﷺ على أن تكون المرجعية العليا لله ولرسوله ﷺ، وأبى أن تكون هناك مرجعية أخرى غير ذلك؛ فلا مرجعية لبشر غير رسول الله ﷺ؛ إذ لا بشر معصوم غيره، ولا كتاب آخر؛ إذ لا وحي غير القرآن.

---

(١) رواه الحاكم في مستدركه وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه بهذه السياقة، ووافقه الذهبي (٢ / ٥٩٥).

وهذا ما دعا النبي ﷺ يظهر غضبه من عمر رضي الله عنه بل يغلظ لعمر في الكلام حين رآه يقلب في يده صحيفة من التوراة فابتدره بقوله : « أمتهوكون[1] فيها يا ابن الخطاب ، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا، أو بباطل فتصدقوا، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني »[2].

وفي رواية قالوا : إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا، أفترى أن نكتب بعضها؟! فقال: أمتهوكون أنتم تهوك اليهود والنصارى؟ ! لقد جئتكم بها بيضاء نقية، ولو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي »[3].

وقد تجلى هذا الأمر في الحج حيث قال : « لتأخذوا عني مناسككم »[4].

وفي قوله ﷺ محدداً المرجعية بقوله : « ألا أيها الناس ، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب ، وأنا تارك فيكم ثقلين ؛ أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور ؛ فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به »[5].

وفي رواية « قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به :

---

(١) أي : أمتحيرون .

(٢) رواه أحمد (١٥١٥٦) عن جابر ،، وقال محققو المسند : إسناده ضعيف، ورواه البيهقي في الشعب(١٧٧) والدارمي (٤٣٥) . وقال الألباني في كتاب السنة : حسن رقم (٥٠) .

(٣) رواه البيهقي في الشعب (١ / ٢٠٠) وقال الألباني في مشكاة المصابيح حديث حسن (١٧٥) .

(٤) سبق تخريجه .

(٥) رواه مسلم في فضائل الصحابة رقم (٢٤٠٨) عن زيد بن أرقم.

كتاب الله ، وأنتم تسألون عني ، فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت »[١] .

ولقد وعى أصحاب رسول الله ﷺ هذا الدرس في حياته وبعد مماته ، فما كان واحد منهم ليتلقى في مناسكه ـ وفي غير مناسكه ـ عن غير الله ورسوله ، ويبدو هذا من كلام الصحابة حين أردف النبي ﷺ ابن عمه الفضل ، فجلسوا ينتظرون مجيء الفضل ليخبرهم بصنيع النبي ﷺ ثم قالوا : يخبرنا صاحبنا بما صنع رسول الله ﷺ .

وبعد مماته ﷺ وقف عمر رضي الله عنه أمام الحجر ليؤكد على هذه المرجعية العليا فقبله ثم قال : « إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك »[٢] .

ولقد بدا لعمر رضي الله عنه في نفسه يوماً أن يدع الرمل في الطواف والإضطباع فيه ، بعد انتهاء العلة وذهاب الحكمة منه ، لكنه راجع نفسه ، وأبى إلا أن تكون المرجعية لله ولرسوله ، يقول زيد بن أسلم عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : فيم الرملان اليوم والكشف عن المناكب ؟ وقد أطأ[٣] الله الإسلام ، ونفى الكفر وأهله، ومع ذلك لا ندع شيئاً كنا نفعله على عهد رسول الله ﷺ[٤] .

ولهذا كان رد ابن عباس رضي الله عنه قوياً ومقنعاً لمعاوية رضي الله عنه عندما

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) رواه البخاري في الحج رقم (١٥٩٧) عن عمر .

(٣) ثبت .

(٤) رواه أحمد (٣١٧) وقال مخرجو : المسند : صحيح لغيره وهذا إسناد حسن ، ورواه أبو داود (١٨٨٧) وابن ماجه (٢٩٥٢) ، وذكره الألباني في صحيح أبي داود (١٦٦٢) .

أراد معاوية رضي الله عنه أن يستلم أركان الكعبة – السنة استلام الركنين ، اليمني والذي يليه ، دون العراقي والشامي – هنا نظر ابن عباس رضي الله عنه إلى معاوية رضي الله عنه قائلاً كما في مسند أحمد : لم تستلم هذين الركنين ولم يكن رسول الله ﷺ يستلمهما ؟ فقال معاوية : ليس من البيت شيئاً مهجوراً ، فقال ابن عباس : ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾ [الأحزاب : ٢١]، فقال معاوية : صدقت .

هكذا رد ابن عباس معاوية إلى سنة حبيبه ﷺ ، موضحاً له أن الاقتداء الحسن لا يكون إلا في متابعة النبي ﷺ ، وأن الأسوة الحسنة لا تكون إلا في رسول الله ﷺ .

وما أحوج أمتنا الآن أن تعي هذا الدرس ، فترمي خلف ظهرها كل مايصدها عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ .

١٩ – المصطفى ﷺ ناصراً للمرأة :

شائعة كاذبة روج لها المروجون ، ولاكها بأفواههم (المغفلون) وطبل لها (المطبلون) حتى غدت عند البعض حقيقة لا وهماً ، وحقاً لا باطلاً ، هذه الشائعة تقول « بأن الإسلام ظلم المرأة » .

وهذه الشائعة أشبه بقصة جحا حين أشاع في الناس كذباً بأن السلطان دعا القوم إلى وليمة ، فاندفع الناس إلى بيت السلطان فلما رأى جحا إقدامهم سارع في اللحوق بهم ليكون أول الداخلين ، وقال في نفسه : لعل الأمر صدق ، ونسي أنه صاحب الإشاعة ومروج الكذبة ، والداعي إلى الوليمة الكاذبة . وهكذا أشاع المغرضون كذبتهم أو ألقيت في أفواههم ، فصدقوا أنفسهم وخرج علينا أنصار تحرير المرأة من كل حدب وصوب ، يطالبون برفع الظلم عن المرأة ،

وفك القيود عنها ، بداية من قاسم أمين ومروراً بهدى شعراوي وانتهاء بنوال السعداوي و آخرين .

والعجب أن هؤلاء القوم ما فهموا الإسلام ، ولا عرفوا مقاصد شرعيته . و الظلم الذي ينادوا لرفعه عن المرأة ، فهو إن وجد فإنما هو ظلم العادات ، أو التقاليد ، أو الأعراف البالية ، أما الإسلام فلم تر الدنيا شريعة كشريعته تصون المرأة ، وتجعل منها ياقوتة ثمينة ، وجوهرة غالية ، صانتها من يد العابثين ، وأعين المستهترين ، وغرائز المتفلتين .

وانظر إلى هذه الشريعة الغراء لترى تكريم المرآة إنساناً ، وبنتاً ، وزوجة ، وأماً .

١ – أما تكريم المرأة إنساناً ، فلم ينكر الإسلام إنسانيتها كما زعم البعض ، ولم يعتبرها مخلوقاً خلق لخدمة الرجل كما زعم آخرون، وإنما جعلها مع الرجل كجناحي طائر ، أو رئتي إنسان ، فكما أن الطائر لا يطير إلا بجناحيه ، وأن الإنسان لا يجيد الحياة إلا برأتيه ، فكذلك المجتمع لا يصلح إلا بتوعية الرجل والمرأة ، لأنهما ليسا ندين ولا متنافسين ، ولا متخاصمين ، بل متحابين متعاونين متعاطفين .

٢ – تكريم المرأة أنثى ، حيث اعترف الإسلام بأنوثة المرأة ، ويظهر تكريم الإسلام لأنوثة المرأة في الأمور الآتية :

- المحافظة على أنوثة المرأة لتظل ينبوعاً للعواطف والحنان ؛ ولهذا أحل لها ما تقتضيه أنوثتها كالذهب والحرير .
- مراعاة ضعفها فجعلها أبداً في ظل رجل مكفولة النفقات ، مكفية الحاجات .

● المحافظة على خلقها وحيائها .

٣ – تكريم المرأة باعتبارها أماً : فلا يعرف التاريخ ديناً ولا نظاماً كرم المرأة باعتبارها أماً وأعلى من مكانتها مثل الإسلام ، وهذا ظاهر في آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ .

٤ – تكريم المرأة بنتاً : ويظهر هذا التكريم في الأمور الآتية :

● تحريم الوأد ﴿ **وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ** ﴾ [التكوير: ٨].

● اعتبار البنت هبة كالابن من الله تعالى ﴿ **يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً** ﴾ [الشورى: ٤٩].

● جعل جزاء من يحسن إلى البنات الجنة « من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو » وضم أصابعه (١) .

● جعل الإسلام سلطان الأب على ابنته لا يتجاوز حدود التأديب والرعاية ، فلا يصل إلى حد البيع .

● رفض الإسلام إجبار البنت على الزواج من أحد تكرهه (٢) .

وفي حجه ﷺ بدا اهتمامه بالنساء ، وأكد على الوصية بهن ؛ فقال ﷺ : « فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف »(٣) .

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة رقم (٢٦٣١) عن أنس .

(٢) انظر : ملامح المجتمع المسلم – د : يوسف القرضاوي – ص ٣٢١ وما بعدها بتصرف .

(٣) رواه مسلم في الحج رقم (١٢١٨) عن جابر وقد سبق.

هذه وصية من أبلغ وصاياه ﷺ بالنساء في حجة تعد حجة الإسلام، أعلن فيها النبي ﷺ ما لهن وما عليهن ، والعجيب أن طويلات اللسان منهن ، واللائي خلعن « برقع الحياء » وزهدن فيما عند الله ؛ أملاً في الحصول على ما عند بنات « العم سام»، هؤلاء جميعاً يجدن الاستشهاد بالأحاديث الضعيفة ، والمفاهيم المغلوطة ، والقصص الواهية ، والروايات الكاذبة لإشعار الناس بظلم الإسلام للمرأة .

ولعل أروع ما يظهره نسك الحج من مظاهر التكريم والنصرة للمرأة ، هو كون السعي بين الصفا والمروة ركن من أركان الحج ، ولا يصح لإنسان حج ما لم يأت بهذا الركن .

إن الأمة كلها برجالها ونسائها يجعلون من هاجر – عليها السلام – إماماً يأتمون به ، وهم في صنيعهم مقلدون لها، محيون صنيعها بين الصفا والمروة ، حتى هرولتها في بطن الوادي سن للرجال تقليدها فيه، ونهي النساء عن ذلك حفاظاً لهن .

ومن مواقف المرأة الخالدة في مناسك الحج إكرام الله لها بماء زمزم وما من زائر يزور يوم يزور ، ويشرب بعد أن يطوف ، إلا ولهاجر فضل في سقياه هذه .

وأورد هنا مثالاً واحد وهو استشهادهم بحديث « ناقصات عقل ودين » [1] ويدعين أن الإسلام رمى النساء بالنقص في العقل والدين ، ولن نطيل الكلام في الرد عليهن ولكن نقول لهن ولمن وراءهن ، أيهما أشد :

---

(١) رواه البخاري في الزكاة رقم (١٤٦٢) عن أبي سعيد الخدري ، ورواه مسلم في الإيمان رقم (٧٩) عن عبد الله بن عمر .

مجرد النقص ؟

أم بلوغ النقص إلى المنتصف ؟

هذا ما حكم به الإسلام على الرجل ، فهو بدون المرأة لم يكتمل دينه ، بل لم يحز نصف دينه بغياب المرأة عنه ، وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه ، فليتق الله في الشطر الباقي » (١) وفي رواية البيهقي قال رسول الله ﷺ : « إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف الدين فليتق الله في النصف الباقي ».

قال المناوي : جعل التقوى نصفين ؛ نصفا تزوجا ونصفا غيره ، قال أبو حاتم : المقيم لدين المرء في الأغلب فرجه وبطنه ؛ وقد كفي بالتزوج أحدهما (٢).

فأين الظلم أيها الناس ؟

وأرى أننا في عصر يحتاج فيه الرجال إلى الإنصاف من النساء لا العكس ، وهذا ما دعا عبد السلام البسيوني أن يوجه لهن كلاماً لاذعاً ساخراً قال فيه : هل تحدثت سيدي عن نسائنا العواني ، وعن حقهن علينا ؟! آه يا سيدي لو رأيتهن وقد رفعن أسنمة البخت فوق الرؤوس ، ووضعن اللبانة في الأشداق ، والعدسات الملونة في الأحداق، وزججن الحواجب ، وهززن القدود ، وسرن بين خلق الله

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (١ / ٢٩٤) والحاكم (٢ / ١٧٥) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه،والبيهقي في الشعب(٤ / ٣٨٣) وقال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني في الأوسط وفيه عبدالرحمن عن أنس وعنه زهير ابن محمد ولم أعرفه إلا أن يكون عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فيكون إسناده منقطعا وإن كان غيره فلم أعرفه (٤ / ٢٧٢) . وذكره الألباني في صحيح الترغيب رقم(١٩١٦) .

(٢) فتح القدير - المناوي - ج ٦ - ١٠٣ .

التائقين ، كاسيات عاريات مائلات .. مميلات .. متديكات متحذلقات ، وقد برزت لهن عضلات ومخالب ، وتعلمن المصارعة والنزال ، أبرزت كثير منهن المواهب في الفضائيات ، يتحدين بها الرجال !! وقد علقن على الجباه شعارات رفض الإسلام ، ونبذ العفاف .. والحرية الاقتصادية ، وسلاسة العلاقة الإنسانية !!!

آه لو رأيت يا سيدي الدنيا تتسع لكل أحد ـ حتى الشواذ وعباد الشيطان ـ إلا الملتزمين والملتزمات ، آه لو رأيت جرأة الراقصات وسطوة الكاتبات ، «ورزالة المثقفات» !!

آه يا سيدي .. لم يعد الستات عواني عندنا .. بل صرنا نحن الأساري عندهن ..

لم يعدن ينتظرن الإذن يا سيدي .. فحق « المدام» دستوري في أن تروح وتجيء ، وتسافر وتتفسح ، ولم يعد لبعلها « الطرطور» حق في أن يقول لها « كنت فين يا بنت » ؟

صار التعدد حراماً ، والحجاب حراماً ، ولزوم البيت حراماً ، وطاعة الزوج حراماً ، والعفاف حراماً ، بل يزعم « مقصوفات الرقبة » أن الله تعالى قد ظلمهن حين أعطى الرجل القوامة ، ونصفهن في الميراث ، وقيدهن في الشهادة .

صارت إحداهن يا سيدي تطالب بأجرة على عمل " السلطة " وترتيب السرير ، وصب القهوة لضيوف زوجها !!

هل أوصيتنا بهن خيراً يا حبيبي ؟ فمن يوصيهن بنا الآن ؟!

من يوصيهن بنا وهن لا يسمعن لرسول، ولا يستجبن لنصيح، ولا صوت عقل ، ولا نداء فطرة ، بل تقودهن « عدوات أنفسهن » يا سيدي .. تقودهن نساء معقدات ، تبرأن من الأنوثة ، وانخلعن من

الحياء وفشلن في أن يكون لهن بيوت وأسر مثل كل البشر ، فقررن أن يسقطن كل البيوت ، بمنطق علي وعلى أعدائي يا دليلة (١) .

٢٠ ـ المصطفى ﷺ يؤصل لفقه الدعوة إلى الله تعالى :

كانت الدعوة إلى الله تعالى هي الشغل الشاغل لرسول الله ﷺ ، وكيف لا ووظيفته ﷺ الأولى هي كونه داعية إلى الله عز وجل، وهل أرسله ربه إلا ليدعو الناس إلى رب الناس ؟ وقد كان ﷺ يربي أصحابه ليكونوا دعاة من بعده ، كما أراد ﷺ أن يربي أصحابه على ما رباه عليه ربه ؛ ليربي أصحابه الناس على ما ربوا عليه .

والدعوة إلى الله تعالى ليست مجرد أقوال تحفظ ، أو نصوصاً تملى على الناس ، لكنها مع الأقوال والنصوص فقه يؤصل ، وقواعد تقعد ، وأصول يبنى عليها ، وفي حجه ﷺ بدا تأصيله ﷺ لفقه الدعوة وأصوله ، ومن ذلك :

أولاً : فقه الأولويات :

يدرك كل مستبصر بدين الله أن أوامر الشرع ليست على درجة واحدة ، فمنها الفرض والواجب وفيها المستحب والمندوب ، ومنها الحرام والمكروه ، ومنها الواجب والأوجب ، والمؤكد والأوكد ، والحسن والأحسن ، والدعوة إلى الله تعالى تحتاج من الداعية أن يقدم المفروض على المسنون والواجب على المندوب ، والأحسن على الحسن، والأهم على المهم ، وكبير المصلحة على صغيرها ، ودائم المصلحة على منقطعها .

وفي حجه أظهر النبي ﷺ فقه الأولويات ، حيث أنه ﷺ أخبر

---

(١) انظر مقالة الشيخ عبد السلام البسيوني بعنوان قراءة دامعة في خطبة الوداع .

عن أجر المحلقين والمقصرين فقال : « اللهم اغفر للمحلقين . قالوا يا رسول الله وللمقصرين ، قال : اللهم اغفر للمحلقين ، قالوا : يا رسول الله وللمقصرين . قال : اللهم اغفر للمحلقين . قالوا : يا رسول الله وللمقصرين ، قال وللمقصرين »(١) .

لكنه ﷺ لانشغاله دائماً بالأهم وبالأولى ولهذا دعا للمحلقين ثلاثا، وللمقصرين مرة واحدة .

ثانياً : فقه الموازنات :

ومن الضروري أيضاً لكل داعية أن يوازن في دعوته بين المصالح والمنافع ، وبين المضار والمفاسد ، وبين المصالح والمفاسد ، وإذا كان الفقهاء قد قعدوا لذلك وقالوا بأن : – درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة .

– المفسدة الصغيرة تغتفر من أجل المصلحة الكبيرة .

– المفسدة العارضة تغتفر من أجل المصلحة الدائمة(٢) .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : إذا ثبت أن الحسنات لها منافع وإن كانت واجبة كان في تركها مضار ، والسيئات فيها مضار ، وفي المكروه بعض حسنات ، فالتعارض إما :

١ – بين حسنتين لا يمكن الجمع بينهما ؛ فيقدم أحسنهما بتفويت المرجوح .

٢ – بين سيئتين لا يمكن الخلو منهما ؛ فيدفع أسوأهما باحتمال أدناهما .

---

(١) رواه البخاري في الحج رقم (١٧٢٨) عن أبي هريرة.

(٢) للزيادة في هذا الموضوع انظر : في فقه الأولويات – د : يوسف القرضاوي .

٣ – بين حسنة وسيئة لا يمكن التفريق بينهما ؛ بل فعل الحسنة مستلزم لوقوع السيئة ؛ فيرجح الأرجح من منفعة الحسنة ومضرة السيئة .

٤ – وترك السيئة مستلزم لترك الحسنة ؛ فيرجح الأرجح من منفعة الحسنة ومضرة السيئة (١) .

ويقول في موضع آخر : فإن الأمر والنهي وإن كان متضمناً لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة فينظر في المعارض له ، فإن كان يفوت من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثر لم يكن مأموراً به ، بل يكون محرماً إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته(٢) .

وفي حجه أصل لهذا الفقه الدعوي حين قال لعائشة ـ رضي الله عنها ـ : ألم تري أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم ؟ قالت : فقلت : يا رسول الله أفلا تردها على قواعد إبراهيم؟ فقال رسول الله ﷺ : لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت(٣) .

ثالثاً : فقه الخلاف :

من أحوج ما تحتاج إليه الأمة في وقتنا هذا أدب الخلاف أو فقه الخلاف ؛ وخصوصاً أبناء الحركة الإسلامية ، ومما يغيب عن كثير من أبناء الإسلام ، أن المسألة الواحدة قد تحتمل أكثر من رأي ، وتتسع

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى – ابن تيمية – ج٣٠ – ص ٤٨ ـ ٦١ باختصار شديد .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى / ابن تيمية / ج٢٨ / ص ٢٩,

(٣) رواه البخاري في التفسير رقم (٤٤٨٤) ومسلم في الحج رقم (١٣٣٣) .

لأكثر من وجه ، وهنا يجوز لكل أحد أن يأخذ برأي دون آخر دون تأثيم أو تفسيق ، فإن اقتدى أحد ببلال آخذاً بالعزيمة فنعم هو ، وإن خالفه غيره واقتدى بعمار آخذاً بالرخصة فلا إثم عليه .

وعلى هذا ربي النبي ﷺ أصحابه ؛ يقول ابن مسعود رضي الله عنه : سمعت رجلاً قرأ آية قد سمعت من النبي ﷺ خلافها ؛ فأخذته بيده فانطلقت به إلى النبي ﷺ ، فقال : النبي ﷺ : كلاكما محسن »(١) .

وهذا ما يطلق عليه الفقهاء « جواز تعدد الصواب » ويطلق على أصحابه بأنهم المصوبة .

وفي حجه ﷺ رأيناه يشرع للناس أنواع النسك الثلاثة (الإفراد – القران – التمتع) ولم يعنف واحداً ، أو يؤثم آخر .

كما أنه في أيام منى أخبر عن ربه ﴿ **فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى** ﴾ [البقرة : ٢٠٣] .

وكذلك في حلقه ﷺ فإنه وإن حلق فلم يعنف المقصرين ، ولم يحمل عليهم حملة شعواء ، بل دعا لهم كما دعا للمحلقين ، وإن كانت الدعوة مرة لا ثلاث .

إن هذه الأمور وغيرها من مناسك الحج جديرة بالنظر فيها نظرة تمهل وترو ، كما أنها جديرة بالتأسي والتطبيق ؛ حتى لا نقدم ما حقه التأخير ونؤخر ما حقه التقديم ، أو نهول ما من شأنه التهوين ، ونضخم ما من حقه التضعيف .

---

(١) رواه البخاري في النكاح رقم (٥٠٦٢) عن عبد الله بن مسعود .